تفسير سورة غافر

وهى سورة المؤمن، وتسمى سورة الطول. وهى مكية فى قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر. قال الحسن : إلا قوله : ﴿ **وسبح بحمد ربك** ﴾ لأن الصلوات نزلت بالمدينة . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آيتين نزلتا بالمدينة. وهما: ﴿**إن الذين يجادلون فى آيات الله**﴾ والتى بعدها، وهى خمس وثمانون آية ، وقيل : اثنتان وثمانون آية. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : أنزلت سورة حم المؤمن بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج ابن الضريس والنحاس، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : أنزلت الحواميم السبع بمكة. وأخرج ابن مردويه والديلمى عن سمرة بن جندب قال : نزلت الحواميم جميعًا بمكة.

وأخرج محمد بن نصر وابن مردويه عن أنس بن مالك سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله أعطانى السبع الحواميم مكان التوراة، وأعطانى الراءات إلى الطواسين مكان الإنجيل وأعطانى ما بين الطواسين إلى الحواميم مكان الزبور، وفضلنى بالحواميم والمفصل ما قرأهن نبى قبلى ». وأخرج أبو عبيدة فى فضائله عن ابن عباس قال : إن لكل شىء لبابا، وإن لباب القرآن آل حم. وأخرج أبو عبيد وابن الضريس وابن المنذر والحاكم، والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود قال : الحواميم ديباج القرآن. وأخرج أبو عبيد ومحمد بن نضر وابن المنذر عنه قال : إذا وقعت فى آل حم وقعت فى روضات دمثات أتأنق فيهن. وأخرج أبو الشيخ وأبو نعيم والديلمى عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « الحواميم ديباج القرآن ». وأخرج البيهقى فى الشعب عن خليل بن مرّة ؛ أن رسول الله ﷺ : « الحواميم سبع، وأبواب النار سبع، تجىء كل حم منها تقف على باب من هذه الأبواب تقول : اللهم لا تدخل من هذا الباب من كان يؤمن بى ويقرؤنى ». وأخرج أبو عبيد وابن سعد ومحمد بن نصر وابن مردويه، والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ حم المؤمن إلى ﴿ **إليه المصير** ﴾ وآية الكرسى حين يصبح، حفظ بهما حتى يمسى، ومن قرأهما حين يمسى، حفظ بهما حتى يصبح » (١) .

﴿ حمٓ (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ (٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٥)

---

(١) البيهقى فى الشعب (٢٢٤٥) وفى إسناده محمد بن أيوب بن جعفر بن أبى سعيد المقبرى لم أجد له ترجمة.

obeikandi.com

وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٦) الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) ﴾ .

قوله : ﴿ حم ﴾ قرأ الجمهور بفتح الحاء مشبعًا، وقرأ حمزة والكسائى بإمالته إمالة محضة. وقرأ أبو عمرو بإمالته بين بين، وقرأ الجمهور ﴿حم﴾ بسكون الميم كسائر الحروف المقطعة. وقرأ الزهرى بضمها على أنها خبر مبتدأ مضمر أو مبتدأ والخبر ما بعده . وقرأ عيسى بن عمر الثقفى بفتحها على أنها منصوبة بفعل مقدر أو على أنها حركة بناء لا حركة إعراب. وقرأ ابن أبى إسحاق وأبو السماك لالتقاء الساكنين، أو بتقدير القسم. وقرأ الجمهور بوصل الحاء بالميم. وقرأ أبو جعفر بقطعها. وقد اختلف فى معناه، فقيل هو اسم من أسماء اللّه. وقيل : اسم من أسماء القرآن. وقال الضحاك والكسائى معناه: قضى، وجعلاه بمعنى حم، أى قضى ووقع. وقيل : معناه : حم أمر اللّه، أى قرب نصره لأوليائه وانتقامه من أعدائه. وهكذا كله تكلف لا موجب له وتعسف لا ملجئ إليه، والحق أن هذه الفاتحة لهذه السورة وأمثالها من المتشابه الذى استأثر اللّه بعلم معناه كما قدمنا تحقيقه فى فاتحة سورة البقرة.

﴿ **تنزيل الكتاب** ﴾ هو خبر لـ ﴿ **حم** ﴾ على تقدير أنه مبتدأ، أو خبر لمبتدأ مضمر، أو هو مبتدأ وخبره: ﴿**من اللّه العزيز العليم**﴾ قال الرازى: المراد بتنزيل : المنزل، والمعنى : أن القرآن منزل من عند اللّه ليس بكذب عليه. والعزيز الغالب القاهر، والعليم : الكثير العلم بخلقه وما يقولونه ويفعلونه . ﴿ **غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب** ﴾ قال الفراء : جعلها كالنعت للمعرفة، وهى نكرة، ووجه قول هذا أن إضافتها لفظية، ولكنه يجوز أن تجعل إضافتها معنوية كما قال سيبويه أن كل ما إضافته غير محضة يجوز أن تجعل وتوصف به المعارف إلا الصفة المشبهة. وأما الكوفيون فلم يستثنوا شيئًا بل جعلوا الصفة المشبهة كاسم الفاعل فى جواز جعلها إضافة محضة،وذلك حيث لا يراد بها زمان مخصوص، فيجوزون فى ﴿ **شديد** ﴾ هنا أن تكون إضافته محضة. وعلى قول سيبويه لابدّ من تأويله بمشدد. وقال الزجاج : إن هذه الصفات الثلاث مخفوضة على البدل. وروى عنه أنه جعل غافر وقابل مخفوضين على الوصف وشديد مخفوض على البدل والمعنى : غافر الذنب لأوليائه، وقابل توبتهم، وشديد العقاب لأعدائه، والتوب مصدر بمعنى التوبة من تاب يتوب توبًا، وقيل : هو جمع توبة، وقيل: غافر الذنب لمن قال : لا إله إلا اللّه، وقابل التوب من الشرك، وشديد العقاب لمن لا يوحده، وقوله ﴿ **ذى**

الطول ﴾ يجوز أن يكون صفة، لأنه معرفة وأن يكون بدلا، وأصل الطول : الإنعام والتفضل ، أى ذى الإنعام على عباده والتفضل عليهم. وقال مجاهد : ذى الغنى والسعة. ومنه قوله : ﴿ومن لم يستطع منكم طولا﴾ [النساء : ٢٥] أى غنى وسعة، وقال عكرمة : ذى الطول ذى المنّ. قال الجوهرى : والطول بالفتح : المنّ يقال منه. طال عليه، ويطول عليه: إذا امتنّ عليه. وقال محمد بن كعب: ذى الطول ذى التفضل. قال الماوردى : والفرق بين المنّ والتفضل أن المنّ عفو عن ذنب ، والتفضل إحسان غير مستحق. ثم ذكر ما يدل على توحيده وأنه الحقيق بالعبادة فقال : ﴿ **لا إله إلا هو إليه المصير** ﴾ لا إلى غيره، وذلك فى اليوم الآخر.

ثم لما ذكر أن القرآن كتاب اللّه أنزله ليهتدى به فى الدين ذكر أحوال من يجادل فيه لقصد إبطاله فقال : ﴿ **ما يجادل فى آيات اللّه إلا الذين كفروا** ﴾ أى ما يخاصم فى دفع آيات اللّه وتكذيبها إلا الذين كفروا، والمراد الجدال بالباطل والقصد إلى دحض الحق كما فى قوله : ﴿**وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق** ﴾ فأما الجدال لاستيضاح الحقّ ورفع اللبس والبحث عن الراجح والمرجوح وعن المحكم والمتشابه، ودفع ما يتعلق به المبطلون من متشابهات القرآن، وردهم بالجدال إلى المحكم فهو من أعظم ما يتقرب المتقربون، وبذلك أخذ اللّه الميثاق على الذين أوتوا الكتاب فقال : ﴿ وإذ أخذ اللّه ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ﴾ [آل عمران : ١٨٧] وقال: ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم اللّه ويلعنهم اللاعنون ﴾ [البقرة: ١٥٩] وقال : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ﴾ [العنكبوت : ٤٦]. ﴿ **فلا يغررك تقلبهم فى البلاد** ﴾ لما حكم اللّه سبحانه على المجادلين فى آيات اللّه بالكفر، نهى رسول اللّه ﷺ عن أن يغتر بشىء من حظوظهم الدنيوية فقال : فلا يغررك ما يفعلونه من التجارة فى البلاد، وما يحصلونه من الأرباح ويجمعونه من الأموال، فإنهم معاقبون عما قليل، وإن أمهلوا فإنهم لا يهملون. قال الزجاج : لا يغررك سلامتهم بعد كفرهم، فإن عاقبتهم الهلاك. قرأ الجمهور ﴿**لا يغررك**﴾ بفك الإدغام. وقرأ زيد بن على وعبيد بن عمير بالإدغام.

ثم بين حال من كان قبلهم ، وأن هؤلاء سلكوا سبيل أولئك فى التكذيب فقال : ﴿**كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم** ﴾ الضمير فى من بعدهم يرجع إلى قوم نوح، أى وكذبت الأحزاب الذين تحزّبوا على الرسل من بعد قوم نوح كعاد وثمود ﴿**وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه** ﴾ أى همت كل أمة من تلك الأمم المكذبة برسولهم الذى أرسل إليهم ليأخذوه ليتمكنوا منه فيحبسوه ويعذبوه ويصيبوا منه ما أرادوا. وقال قتادة والسدّى: ليقتلوه، والأخذ قد يرد بمعنى الإهلاك، كقوله: ﴿ ثم أخذتم [1] فكيف كان نكير﴾ [الحج : ٤٤] والعرب تسمى الأسير :

(١) فى المخطوطة : « فأخذتهم » وهو خطأ .

الأخيذ ﴿**وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق**﴾ أى خاصموا رسولهم بالباطل من القول ليدحضوا به الحق ليزيلوه، ومنه : مكان دحض، أى مزلقة ومزلة أقدام، والباطل داحض لأنه يزلق ويزول فلا يستقر. قال يحيى بن سلام : جادلوا الأنبياء بالشرك ليبطلوا به الإيمان ﴿ **فأخذتهم فكيف كان عقاب** ﴾ أى فأخذت هؤلاء المجادلين بالباطل، فكيف كان عقابى الذى عاقبتم به، وحذف ياء المتكلم من عقاب اجتزاء بالكسرة عنها وصلا ووقفًا لأنها رأس آية : ﴿ **وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا** ﴾ أى وجبت وثبتت ولزمت، يقال : حق الشىء إذا لزم وثبت، والمعنى: وكما حقت كلمة العذاب على الأمم المكذبة لرسلهم حقت على الذين كفروا به وجادلوك بالباطل وتحزبوا عليك، وجملة: ﴿ **أنهم أصحاب النار** ﴾ للتعليل ، أى لأجل أنهم مستحقون للنار. قال الأخفش: أى لأنهم ، أو بأنهم . ويجوز أن تكون فى محل رفع بدلا من كلمة . قرأ الجمهور : ﴿**كلمة** ﴾ بالتوحيد، وقرأ نافع ابن عامر : « كلمات » بالجمع .

ثم ذكر أحوال حملة العرش ومن حوله فقال : ﴿ **الذين يحملون العرش ومن حوله** ﴾ والموصول مبتدأ، وخبره ﴿ **يسبحون بحمد ربهم** ﴾، والجملة مستأنفة مسوقة لتسلية رسول اللّه ﷺ ، ببيان أن هذا الجنس من الملائكة الذين هم أعلى طبقاتهم يضمون إلى تسبيحهم للّه والإيمان به، الاستغفار للذين آمنوا باللّه ورسوله وصدقوا، والمراد بمن حول العرش : هم الملائكة الذين يطوفون به مهللين مكبرين، وهو فى محل رفع عطفا على الذين يحملون العرش، وهذا هو الظاهر. وقيل : يجوز أن تكون فى محل نصب عطفا على العرش، والأول أولى. والمعنى : أن الملائكة الذين يحملون العرش، وكذلك الملائكة الذين هم حول العرش ينزهون اللّه ملتبسين بحمده على نعمه ويؤمنون باللّه، ويستغفرون اللّه لعباده المؤمنين به. ثم بين سبحانه كيفية استغفارهم للمولى فقال حاكيًا عنهم : ﴿ **ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلمًا** ﴾ وهو بتقدير القول : أى يقولون ربنا، أو قائلين ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما انتصاب ﴿ **رحمة** ﴾ و﴿**علما**﴾ على التمييز المحوّل عن الفاعل، والأصل : وسعت رحمتك وعلمك كل شىء ﴿**فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك** ﴾ أى أوقعوا التوبة عن الذنوب واتبعوا سبيل اللّه، وهو دين الإسلام ﴿ **وقهم عذاب الجحيم** ﴾ أى احفظهم منه .

﴿ **ربنا وأدخلهم جنات عدن** ﴾ و ﴿ **أدخلهم** ﴾ معطوف على قوله : ﴿ **قهم** ﴾ ووسط الجملة الندائية لقصد المبالغة بالتكرير، ووصف جنات عدن بأنها ﴿ **التى وعدتهم** ﴾ إياها ﴿ **ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرّياتهم** ﴾ أى وأدخل من صلح ، والمراد بالصلاح ها هنا : الإيمان باللّه والعمل بما شرعه اللّه، فمن فعل ذلك فقد صلح لدخول الجنة ، ويجوز عطف ومن صلح على الضمير فى وعدتهم ، أى ووعدت من صلح ، والأولى عطفه على الضمير الأوّل فى وأدخلهم. قال الفراء والزجاج : نصبه من مكانين إن شئت على الضمير فى أدخلهم، وإن شئت على الضمير فى وعدتهم. وقرأ الجمهور بفتح اللام من صلح. وقرأ ابن أبى عبلة بضمها. وقرأ

الجمهور : ﴿ **وذرياتهم** ﴾ على الجمع. وقرأ عيسى بن عمر على الإفراد ﴿ **إنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ أى الغالب القاهر الكثير الحكمة الباهرة : ﴿ **وقهم السيئات** ﴾ أى العقوبات، أو جزاء السيئات على تقدير مضاف محذوف. قال قتادة : وقهم ما يسؤوهم من العذاب ﴿ **ومن تق السيئات يؤمئذ** ﴾ أى يوم القيامة ﴿ **فقد رحمته** ﴾ يقال : وقاه يقيه وقاية، أى حفظه، ومعنى ﴿**فقد رحمته** ﴾ أى رحمته من عذابك وأدخلته جنتك، والإشارة بقوله ك ﴿**وذلك** ﴾ إلى ما تقدم من إدخالهم الجنات، ووقايتهم السيئات وهو مبتدأ، وخبره: ﴿ **هو الفوز العظيم** ﴾ أى الظفر الذى لا ظفر مثله، والنجاة التى لا تساويها نجاة.

وقد أخرج ابن مردويه عن أبى أمامة قال: ﴿**حم**﴾ اسم من أسماء اللّه. وأخرج عبد الرزاق فى المصنف، وأبو عبيد وابن سعد وابن أبى شيبة وأبو داود والترمذى، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن المهلب بن أبى صفرة قال : حدثنى من سمع النبى ﷺ يقول ليلة الخندق : « إن أتيتم الليلة فقولوا: حم لا ينصرون » (١) . وأخرج ابن أبى شيبة والنسائى والحاكم وابن مردويه عن البراء بن عازب، أن رسول اللّه ﷺ قال : « إنكم تلقون عدوكم فليكن شعاركم : حم لا ينصرون » (٢) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله: ﴿ ﴿ **ذى الطول** ﴾ قال: ذى السعة والغنى. وأخرج الطبرانى فى الأوسط وابن مردويه عن ابن عمر فى قوله : ﴿ **غافر الذنب** ﴾ الآية قال: غافر الذنب لمن يقول: لا إله إلا اللّه ﴿**قابل التوب** ﴾ ممن يقول : لا إله إلا اللّه ﴿ **شديد العقاب**﴾ لمن لا يقول: لا إله إلا اللّه ﴿ **ذى الطول**﴾ ذى الغنى ﴿ **لا إله إلا هو** ﴾ كانت كفار قريش لا يوحدونه فوحد نفسه ﴿ **إليه المصير** ﴾ مصير من يقول : لا إله إلا اللّه فيدخله الجنة، ومصير من لا يقول لا إله إلا اللّه فيدخله النار. وأخرج عبد بن حميد قال : قال النبى ﷺ : « إن جدالا فى القرآن كفر ». وأخرج عبد بن حميد عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « مراء فى القرآن كفر » (٣) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ (١١) ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢)

---

(١) عبد الرزاق (٩٤٦٧) وابن سعد ٢/ ٧٢ وابن أبى شيبة فى الجهاد (١٥٤٠) وأبو داود فى الجهاد (٢٥٩٠) والترمذى فى الجهاد (١٦٨٢) وسكت عنه الحاكم ٢/ ١٠٧ وقال الذهبى : « تابعه زهير بن معاوية فهو على شرط الشيخين .

(٢) ابن أبى شيبة فى الجهاد (١٥٤٢٣) والنسائى فى اليوم والليلة فى الكبرى (١٠٤٥١) وسكت عنه الحاكم ٢/ ١٠٧ ووافقه الذهبى.

(٣) أبو داود فى السنة (٤٦٠٣) وأخرجه أحمد ٢/ ٢٥٨ .

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ (١٣) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤) رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (١٥) يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠) .

لما ذكر سبحانه حال أصحاب النار، وأنها حقت عليهم كلمة العذاب، وأنهم أصحاب النار ذكر أحوالهم بعد دخول النار فقال: ﴿ **إن الذين كفروا ينادون** ﴾. قال الواحدى: قال المفسرون: إنهم لما رأوا أعمالهم ونظروا فى كتابهم وأدخلوا النار ومقتوا أنفسهم بسوء صنيعهم، ناداهم حين عاينوا عذاب اللّه مناد : ﴿ **لمقت اللّه** ﴾ إياكم فى الدنيا إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون ﴿ **أكبر من مقتكم أنفسكم** ﴾ اليوم . قال الأخفش : هذه اللام فى لمقت هى لام الابتداء أوقعت بعد ينادون، لأن معناه : يقال لهم، والنداء قول. قال الكلبى : يقول كل إنسان لنفسه من أهل النار: مقتك يا نفس، فتقول الملائكة لهم فى النار : لمقت اللّه إياكم فى الدنيا أشد من مقتكم أنفسكم اليوم. وقال الحسن : يعطون كتابهم، فإذا نظروا إلى سيئاتهم مقتوا أنفسهم، فينادون : لمقت اللّه إياكم فى الدنيا ﴿ **إذ تدعون إلى الإيمان** ﴾ أكبر من مقتكم أنفسكم إذ عاينتم النار، والظرف فى : ﴿ **إذ تدعون** ﴾ منصوب بمقدر محذوف دلّ عليه المذكور ، أى مقتكم وقت دعائكم . وقيل : بمحذوف هو اذكروا. وقيل: بالمقت المذكور، والمقت أشد البغض.

ثم أخبر سبحانه عما يقولون فى النار فقال : ﴿ **قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين** ﴾ اثنتين فى الموضعين نعتان لمصدر محذوف، أى أمتنا إماتتين اثنتين، وأحييتنا إحياءتين اثنتين، والمراد بالإماتتين أنهم كانوا نطفًا لا حياة لهم فى أصلاب آبائهم، ثم أماتهم بعد أن صاروا أحياء فى الدنيا، والمراد بالإحياءتين : أنه أحياهم الحياة الأولى فى الدنيا، ثم أحياهم عند البعث، ومثل هذه الآية قوله : ﴿ وكنتم أمواتًا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ [البقرة:٢٨] وقيل : معنى الآية : أنهم أميتوا فى الدنيا عند انقضاء آجالهم ثم أحياهم اللّه فى قبورهم للسؤال، ثم أميتوا ثم أحياهم اللّه فى الآخرة، ووجه هذا القول أن الموت سلب الحياة ولا حياة للنطفة . ووجه القول الأول أن الموت قد يطلق على عادم الحياة من الأصل ، وقد ذهب إلى تفسير الأول جمهور السلف. وقال ابن زيد: المراد بالآية أنه خلقهم فى ظهر آدم واستخرجهم وأحياهم وأخذ عليهم الميثاق، ثم أماتهم ثم أحياهم فى الدنيا ثم أماتهم. ثم ذكر سبحانه اعترافهم بعد أن صاروا فى

النار بما كذبوا به فى الدنيا فقال حاكيًا عنهم : ﴿ **فاعترفنا بذنوبنا** ﴾ التى أسلفنا فى الدنيا من تكذيب الرسل والإشراك باللّه وترك توحيده، فاعترفوا حيث لا ينفعهم الاعتراف، وندموا حيث لا ينفعهم الندم، وقد جعلوا اعترافهم هذا مقدّمة لقولهم : ﴿ **فهل إلى خروج من سبيل** ﴾ أى هل إلى خروج لنا ورجوع لنا إلى الدنيا من سبيل. ومثل هذا قولهم الذى حكاه اللّه عنهم : ﴿هل **إلى** مرد من سبيل ﴾ (١) [الشورى: ٤٤] وقوله : ﴿ فارجعنا نعمل صالحًا ﴾ [السجدة: ١٢] وقوله : ﴿ **يا ليتنا نردّ** ﴾ الآية .

ثم أجاب اللّه سبحانه عن قولهم هذا بقوله : ﴿ **ذلكم بأنه إذا دعى اللّه وحده كفرتم** ﴾ أى ذلك الذى أنتم فيه من العذاب بسبب أنه إذا دعى اللّه فى الدنيا وحده دون غيره كفرتم به وتركتم توحيده ﴿ **وإن يشرك به** ﴾ غيره من الأصنام أو غيرها ﴿ **تؤمنوا** ﴾ بالإشراك به وتجيبوا الداعى إليه، فبين سبحانه لهم السبب الباعث على عدم إجابتهم إلى الخروج من النار، وهو ما كانوا فيه من ترك توحيد اللّه وإشراك غيره به فى العبادة التى رأسها الدعاء، ومحل ذلكم الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى الأمر ذلكم أو مبتدأ خبره محذوف، أى ذلكم العذاب الذى أنتم فيه بذلك السبب، وفى الكلام حذف، والتقدير : فأجيبوا بأن لا سبيل إلى الرد، وذلك لزنكم كنتم إذا دعى اللّه الخ ﴿ **فالحكم للّه** ﴾ وحده دون غيره، وهو الذى حكم عليكم بالخلود فى النار وعدم الخروج منها و ﴿ **العلى** ﴾ المتعالى عن أن يكون له مماثل فى ذاته ولا صفاته، و﴿ **الكبير**﴾ الذى كبر عن أن يكون له مثل أو صاحبة أو ولد أو شريك ﴿ **هو الذى يريكم آياته** ﴾ أى دلائل توحيده وعلامات قدرته ﴿ **وينزل لكم من السماء رزقًا** ﴾ يعنى : المطر فإنه سبب الأرزاق. جمع سبحانه بين إظهار الآيات وإنزال الأرزاق، لأن بإظهار الآيات قوام الأديان ، وبالأرزاق قوام الأبدان ، وهذه الآيات هى التكوينية التى جعلها اللّه سبحانه فى سمواته وأرضه وما فيهما وما بينهما. وقرأ الجمهور: ﴿ **ينزل** ﴾ بالتشديد. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتخفيف ﴿**وما يتذكر إلا من ينيب** ﴾ أى ما يتذكر ويتعظ بتلك الآيات الباهرة فيستدل بها على التوحيد وصدق الوعد والوعيد إلا من ينيب، أي رجع إلى طاعة اللّه بما يستفيده من النظر فى آيات اللّه.

ثم لما ذكر سبحانه ما نصبه من الأدلة على التوحيد أمر عباده بدعائه وإخلاص الدين له فقال: ﴿ **فادعوا اللّه مخلصين له الدين** ﴾ أى كان الأمر كما ذكر من ذلك فادعوا اللّه وحده مخلصين له العبادة التى أمركم بها ﴿ **ولو كره الكافرون** ﴾ ذلك ، فلا تلتفتوا إلى كراهتهم، ودعوهم يموتوا بغيظهم ويهلكوا بحسرتهم . ﴿ **رفيع الدجات** ﴾ وارتفاع رفيع الدرجات على أنه خبر آخر عن المبتدأ المتقدم ، أى هو الذى يريكم آياته ، وهو رفيع الدرجات ، وكذلك ﴿ **ذو العرش** ﴾ خبر ثالث ، ويجوز أن يكون رفيع الدرجات مبتدأ ، وخبره ﴿ **ذو العرش** ﴾ ويجوز أن يكونا خبرين لمبتدأ محذوف ، ورفيع صفة مشبهة . والمعنى : رفيع الصفات ، أو رفيع

---

(١) فى المخطوطة : « فهل » .

درجات ملائكته ، أى معارجهم ، أو رفيع درجات أنبيائه وأوليائه فى الجنة . وقال الكلبى وسعيد بن جبير : رفيع السموات السبع ، وعلى هذا الوجه يكون رفيع بمعنى : رافع ، ومعنى ذو العرش : مالكه وخالقه والمتصرف فيه ، وذلك يقتضى علوّ شأنه وعظم سلطانه ، ومن كان كذلك فهو الذى يحقّ له العبادة ويجب له الإخلاص ، وجملة : ﴿ **يلقى الروح من أمره** ﴾ فى محل رفع على أنها خبر آخر للمبتدأ المتقدّم أو للمقدر ، ومعنى ذلك : أنه سبحانه يلقى الوحى ﴿**على من يشاء من عباده** ﴾ ، وسمى الوحى روحًا ؛ لأن الناس يحيون به من موت الكفر كما تحيا الأبدان بالأرواح . وقوله : ﴿ **من أمره** ﴾ متعلق بـ ﴿ **يلقى** ﴾ ، و« من » لابتداء الغاية ، ويجوز أن يكون متعلقًا بمحذوف على أنه حال من الروح، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا ﴾ [الشورى : ٥٢] . وقيل : الروح : جبريل كما فى قوله : ﴿نزل به الروح الأمين . على قلبك . . . ﴾ [الشعراء : ١٩٣، ١٩٤] وقوله : ﴿ نزله روح القدس من ربك بالحق ﴾ [النحل: ١٠٢] وقوله : ﴿ **على من يشاء من عباده** ﴾ هم الأنبياء ، ومعنى ﴿ **من أمره** ﴾ : من قضائه ﴿ **لينذر يوم التلاق** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **لينذر** ﴾ مبنيًا للفاعل ونصب اليومَ ، والفاعل هو الله سبحانه أو الرسول أو من يشاء ، والمنذر به محذوف تقديره : لينذر العذاب يوم التلاق . وقرأ أبىّ وجماعة كذلك إلا أنه وقع اليوم على الفاعلية مجازًا . وقرأ ابن عباس والحسن وابن السميقع : « لتنذر » بالفوقية على أن الفاعل ضمير المخاطب وهو الرسول ، أو ضمير يرجع إلى الروح لأنه يجوز تأنيثها . وقرأ اليمانى : « لينذر » على البناء للمفعول ، ورفع يوم على النيابة ، ومعنى ﴿ **يوم التلاق** ﴾ : يوم يلتقى أهل السموات والأرض فى المحشر ، وبه قال قتادة . وقال أبو العالية ومقاتل : يوم يلتقى العابدون والمعبودون . وقيل : الظالم والمظلوم . وقيل : الأولون والآخرون . وقيل : جزاء الأعمال والعاملون .

وقوله : ﴿ **يوم هم بارزون** ﴾ بدل من يوم التلاق . وقال ابن عطية : هو منتصب بقوله : ﴿ **لا يخفى على الله** ﴾ وقيل : منتصب بإضمار اذكر ، والأول أولى ، ومعنى ﴿ **بارزون** ﴾ : خارجون من قبورهم لا يسترهم شىء ، وجملة : ﴿ **لا يخفى على الله منهم شىء** ﴾ مستأنفة مبينة لبروزهم ، ويجوز أن تكون فى محل نصب على الحال من ضمير بارزون ، ويجوز أن تكون خبرًا ثانيًا للمبتدأ ، أى لا يخفى عليه سبحانه شىء منهم ولا من أعمالهم التى عملوها فى الدنيا ، وجملة : ﴿ **لمن الملك اليوم** ﴾ مستأنفة جواب على سؤال مقدّر كأنه قيل : فماذا يقال عند بروز الخلائق فى ذلك اليوم ؟ فقيل : يقال : لمن الملك اليوم ؟ قال المفسرون : إذا هلك كل من فى السموات والأرض ، فيقول الرب تبارك وتعالى : ﴿ **لمن الملك اليوم** ﴾ بعنى: يوم القيامة فلا يجيبه أحد فيجيب تعالى نفسه ، فيقول : ﴿ **لله الواحد القهار** ﴾ قال الحسن : هو السائل تعالى ، وهو المجيب حين لا أحد يجيبه فيجيب نفسه . وقيل : إنه سبحانه يأمر مناديًا ينادى بذلك ، فيقول أهل المحشر مؤمنهم وكافرهم : ﴿ **لله الواحد القهار** ﴾ وقيل : إنه يجيب المنادى بهذا الجواب أهل الجنة دون أهل النار ، وقيل : هو حكاية لما ينطق به لسان الحال فى ذلك اليوم

لانقطاع دعاوى المبطلين ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما يوم الدين . ثم ما أدراك ما يوم الدين . يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا والأمر يومئذ لله ﴾ [الانفطار : ١٧ ـ ١٩] وقوله : ﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾ من تمام الجواب على القول بأن المجيب هو الله سبحانه ، وأما على القول بأن المجيب هم العباد كلهم أو بعضهم فهو مستأنف لبيان ما يقوله الله سبحانه بعد جوابهم ، أى اليوم تجزى كل نفس بما كسبت من خير وشر ، لا ظلم اليوم على أحد منهم ينقص من ثوابه أو بزيادة فى عقابه ﴿إن الله سريع الحساب﴾ أى سريع حسابه لأنه سبحانه لا يحتاج إلى تفكر فى ذلك كما يحتاجه غيره ، لإحاطة علمه بكل شىء فلا يعزب عنه مثقال ذرة .

ثم أمر الله سبحانه رسوله بإنذار عباده فقال : ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة ﴾ أى يوم القيامة سميت بذلك لقربها ، يقال : أزف فلان ، أى قرب ، يأزف أزفا ، ومنه قول النابغة :

أزف الترحل غير أن ركابنا ... لمـا نزل بركابنـا وكأن قد

ومنه قوله تعالى : ﴿ أزفت الآزفة ﴾ [النجم : ٥٧] أى قربت الساعة . وقيل : إن يوم الآزفة : هو يوم حضور الموت ، والأوّل أولى ، قال الزجاج : وقيل : لها آزفة لأنها قريبة وإن استبعد الناس أمرها ، وما هو كائن فهو قريب ﴿ إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ﴾ وذلك أنها تزول عن مواضعها من الخوف حتى تصير إلى الحنجرة كقوله : ﴿ وبلغت القلوب الحناجر ﴾ [الأحزاب : ١٠] . ﴿ كاظمين ﴾ مغمومين مكروبين ممتلئين غما . قال الزجاج : المعنى : إذ قلوب الناس لدى الحناجر فى حال كظمهم . قال قتادة : وقعت قلوبهم فى الحناجر من المخافة ، فهى لا تخرج ولا تعود فى أمكنتها . وقيل : هو إخبار عن نهاية الجزع ، وإنما قال : ﴿كاظمين﴾ باعتبار أهل القلوب ؛ لأن المعنى : إذ قلوب الناس لدى حناجرهم ، فيكون حالاً منهم . وقيل : حالاً من القلوب ، وجمع الحال منها جمع العقلاء ؛ لأنه أسند إليها ما يسند إلى العقلاء ، فجمعت جمعه . ثم بين سبحانه أنه لا ينفع الكافرين فى ذلك اليوم أحد فقال : ﴿ ما للظالمين من حميم ﴾ أى قريب ينفعهم ﴿ ولا شفيع يطاع ﴾ فى شفاعته لهم ، ومحل ﴿ يطاع ﴾ الجر على أنه صفة لـ ﴿ شفيع ﴾ .

ثم وصف سبحانه شمول علمه لكل شىء وإن كان فى غاية الخفاء ، فقال : ﴿ يعلم خائنة الأعين ﴾ وهى مسارقة النظر إلى ما لا يحل النظر إليه ، والجملة خبر آخر لقوله : ﴿ هو الذى يريكم ﴾ قال المؤرج : فيه تقديم وتأخير ، أى يعلم الأعين الخائنة ، وقال قتادة : خائنة الأعين : الهمز بالعين فيما لا يحب الله . وقال الضحاك : هو قول الإنسان : ما رأيت وقد رأى ، ورأيت وما رأى . وقال سفيان : هى النظرة بعد النظرة . والأول أولى ، وبه قال مجاهد . ﴿ وما تخفى الصدور﴾ من الضمائر وتسره من معاصى الله ﴿ والله يقضى بالحق ﴾ فيجازى كل أحد بما يستحقه من خير وشرّ ﴿ والذين تدعون من دونه ﴾ أى تعبدونهم من دون الله ﴿ لا يقضون

بشيء ﴾ لأنهم لا يعلمون شيئًا ولا يقدرون على شيء ، قرأ الجمهور : ﴿ **يدعون** ﴾ بالتحتية يعنى الظالمين ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم ، وقرأ نافع وشيبة وهشام بالفوقية على الخطاب لهم ﴿ **إن الله هو السميع البصير** ﴾ فلا يخفى عليه من المسموعات والمبصرات خافية .

وقد أخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وصححه ، عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾ قال : هى مثل التى فى البقرة ﴿ وكنتم أمواتًا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ [البقرة : ٢٨] كانوا أمواتًا فى صلب آبائهم ، ثم أخرجهم فأحياهم ، ثم أماتهم ، ثم يحييهم بعد الموت . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : كنتم ترابًا قبل أن يخلقكم ، فهذه ميتة ، ثم أحياكم فخلقكم فهذه حياة ، ثم يميتكم فترجعون إلى القبور فهذه ميتة أخرى ، ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة ، فهما موتتان وحياتان كقوله : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتًا فأحياكم ﴾ الآية [البقرة : ٢٨] . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **يوم التلاق** ﴾ قال : يوم القيامة يلتقى فيه آدم وآخر ولده . وأخرج عنه أيضًا قال : ﴿ **يوم التلاق** ﴾ : يوم الآزفة ، ونحو هذا من أسماء يوم القيامة عظمه الله وحذر عباده . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وأبو نعيم فى الحلية عنه أيضًا قال : ينادى مناد بين يدى الساعة : « يأيها الناس ، أتتكم الساعة ، فيسمعها الأحياء والأموات ، وينزل الله إلى السماء الدنيا فيقول : ﴿ **لمن الملك اليوم لله الواحد القهار** ﴾ »(١) . وأخرج ابن أبى الدنيا فى البعث ، والديلمى عن أبى سعيد عن النبى ﷺ مثله(٢) . وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود قال : يجمع الله الخلق يوم القيامة بصعيد واحد بأرض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يعص الله فيها قط ، فأول ما يتكلم أن ينادى مناد ﴿ **لمن الملك اليوم لله الواحد القهار . اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب** ﴾ فأول ما يبدأ به من الخصومات الدماء .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور** ﴾ قال : الرجل يكون فى القوم فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها ، وإذا غفلوا لحظ إليها ، وإذا نظروا غضّ بصره عنها ، وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أن ينظر إلى عورتها . وأخرج ابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الأوسط ، وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى الشعب عنه فى الآية قال : إذا نظر إليها يريد الخيانة أم لا ؟ ﴿ **وما تخفى الصدور** ﴾ قال : إذا قدر عليها أيزنى بها أم لا ؟ ألا أخبركم بالتى تليها ﴿ **والله يقضى بالحق** ﴾ قادر على أن يجزى بالحسنة الحسنة ، وبالسيئة السيئة . وأخرج أبو داود والنسائى وابن مردويه عن سعد قال : لما كان يوم فتح مكة أمن النبى ﷺ الناس إلا أربعة نفر وامرأتين ، وقال : «اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأمتار الكعبة » منهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح فاختبأ عند

---

(١) الحاكم ٢/ ٤٣٧ على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، وأبو نعيم ١/ ٣٢٤ .

(٢) الديلمى (٨٨٦٩) .

عثمان بن عفان ، فلما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة جاء به ، فقال : يا رسول الله ، بايع عبد الله ، فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثًا كل ذلك يأبى بيعته ، ثم بايعه ، ثم أقبل على أصحابه فقال: « ما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني كففت يدى عن بيعته فيقتله ؟» فقالوا: ما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك ، هلا أومأت إلينا بعينك ؟ فقال : « إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة الأعين » (١) .

﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧) وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) ﴾ .

لما خوفهم سبحانه بأحوال الآخرة أردفه ببيان تخويفهم بأحوال الدنيا فقال : ﴿ **أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم** ﴾ أرشدهم سبحانه إلى الاعتبار بغيرهم ، فإن الذين مضوا من الكفار ﴿ **كانوا هم أشد منهم قوة** ﴾ من هؤلاء الحاضرين من الكفار وأقوى ﴿ **وآثارًا في الأرض** ﴾ بما عمروا فيها من الحصون والقصور وبما لهم من العدد والعدّة ، فلما كذبوا رسلهم أهلكهم الله . وقوله : ﴿ **فينظروا** ﴾ إما مجزوم بالعطف على يسيروا ، أو منصوب بجواب الاستفهام . وقوله : ﴿ **كانوا أشد منهم قوة** ﴾ بيان للتفاوت بين حال هؤلاء وأولئك . وقوله : ﴿ **وآثارًا** ﴾ عطف على قوة . قرأ الجمهور ﴿ **أشد منهم** ﴾ وقرأ

---

(١) أبو داود في الحدود (٤٣٥٩) والنسائي ٧/ ١٠٥ « وفيه أسباط مختلف فيه وأحمد بن الفضل شيعي في حفظه شيء » .

ابن عامر : « أشد منكم » على الالتفات ﴿ **فأخذهم الله بذنوبهم** ﴾ أى بسبب ذنوبهم ﴿ **وما كان لهم من الله من واق** ﴾ أى من دافع يدفع عنهم العذاب ، وقد مرّ تفسير هذه الآية فى مواضع . والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدم من الأخذ ﴿ **بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات** ﴾ أى بالحجج الواضحة ﴿ **فكفروا** ﴾ بما جاؤوهم به ﴿ **فأخذهم الله إنه قوى** ﴾ يفعل كل ما يريده لا يعجزه شىء ﴿ **شديد العقاب** ﴾ لمن عصاه ولم يرجع إليه .

ثم ذكر سبحانه قصة موسى وفرعون ليعتبروا فقال : ﴿ **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا** ﴾ هى التسع الآيات التى قد تقدم ذكرها فى غير موضع ﴿ **وسلطان مبين** ﴾ أى حجة بينة واضحة ، وهى : التوراة ﴿ **إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا** ﴾ إنه ﴿ **ساحر كذاب** ﴾ أى فيما جاء به ، وخصهم بالذكر ؛ لأنهم رؤساء المكذبين بموسى ؛ ففرعون الملك ، وهامان الوزير ، وقارون صاحب الأموال والكنوز ﴿ **فلما جاءهم بالحق من عندنا** ﴾ وهى معجزاته الظاهرة الواضحة ﴿ **قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم** ﴾ قال قتادة : هذا قتل غير القتل الأول ، لأن فرعون قد كان أمسك عن قتل الولدان وقت ولادة موسى ، فلما بعث الله موسى أعاد القتل على بنى إسرائيل ، فكان يأمر بقتل الذكور وترك النساء ، ومثل هذا قول فرعون : ﴿ سنقتل أبناءهم ونستحى نساءهم ﴾ [الأعراف : ١٢٧] ﴿ **وما كيد الكافرين إلا فى ضلال** ﴾ أى فى خسران ووبال ، لأنه يذهب باطلا ويحيق بهم ما يريده الله عز وجل .

﴿ **وقال فرعون ذرونى أقتل موسى** ﴾ إنما قال هذا لأنه كان فى خاصة قومه من يمنعه من قتل موسى مخافة أن ينزل بهم العذاب ، والمعنى : اتركونى أقتله ﴿ **وليدع ربه** ﴾ الذى يزعم أنه أرسله إلينا فليمنعه من القتل إن قدر على ذلك ، أى لا يهولنكم ذلك فإنه لا ربّ له حقيقة ، بل أنا ربكم الأعلى ، ثم ذكر العلة التى لأجلها أراد أن يقتله فقال : ﴿ **إنى أخاف أن يبدل دينكم** ﴾ الذى أنتم عليه من عبادة غير الله ويدخلهم فى دينه الذى هو عبادة الله وحده ﴿ **أو أن يظهر فى الأرض الفساد** ﴾ أى يوقع بين الناس الخلاف والفتنة ، جعل اللعين ظهور ما دعا إليه موسى وانتشاره فى الأرض واهتداء الناس به فسادا ، وليس الفساد إلا ما هو عليه هو ومن تابعه . قرأ الكوفيون ويعقوب : ﴿ **أو أن يظهر** ﴾ بأو التى للإبهام ، والمعنى : أنه لابد من وقوع أحد الأمرين . وقرأ الباقون : ﴿ **وأن يظهر** ﴾ بدون ألف على معنى وقوع الأمرين جميعا ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء من « إنى أخاف » وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص : ﴿ **يظهر** ﴾ بضم الياء وكسر الهاء من أظهر ، وفاعله ضمير موسى ، والفساد نصبا على أنه مفعول به ، وقرأ الباقون بفتح الياء والهاء ، ورفع الفساد على الفاعلية ﴿ **وقال موسى إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب** ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى : ﴿ **عذت** ﴾ بإدغام الذال ، وقرأ الباقون بالإظهار ، لما هدده فرعون بالقتل استعاذ بالله عز وجل من كل متعظم عن الإيمان بالله غير مؤمن بالبعث والنشور ، ويدخل فرعون فى هذا العموم دخولا أوليًا .

﴿ **وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه** ﴾ قال الحسن ومقاتل والسدى : كان قبطيًا

وهو ابن عم فرعون ، وهو الذى نجا مع موسى ، وهو المراد بقوله : ﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ﴾ الآية [القصص : ٢٠]، وقيل: كان من بنى إسرائيل ولم يكن من آل فرعون، وهو خلاف ما فى الآية ، وقد تمحل لذلك بأن فى الآية تقديما وتأخيرًا ، والتقدير : وقال رجل مؤمن من بنى إسرائيل يكتم إيمانه من آل فرعون، قال القشيرى : ومن جعله إسرائيليا ففيه بعد ، لأنه يقال : كتمه أمر كذا ولا يقال : كتم منه كما قال سبحانه : ﴿ ولا يكتمون الله حديثا ﴾ [النساء : ٤٢] وأيضًا ما كان فرعون يحتمل من بنى إسرائيل مثل هذا القول.

وقد اختلف فى اسم هذا الرجل ، فقيل :حبيب . وقيل : حزقيل . وقيل :غير ذلك ، قرأ الجمهور : ﴿ **رجل** ﴾ بضم الجيم ، وقرأ الأعمش وعبد الوارث بسكونها ، وهى لغة تميم ونجد ، والأولى هى الفصيحة ، وقرئ بكسر الجيم و ﴿ **مؤمن** ﴾ صفة لرجل ، و ﴿ **من آل فرعون** ﴾ **صفة أخرى** ، و ﴿ **يكتم إيمانه** ﴾ صفة ثالثة ، والاستفهام فى ﴿ **تقتلون رجلا** ﴾ للإنكار ، و﴿ **أن يقول ربى الله** ﴾ فى موضع نصب بنزع الخافض ، أى لأن يقول أو كراهة أن يقول : وجملة: ﴿ **وقد جاءكم بالبينات من ربكم** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى والحال أنه قد جاءكم **بالمعجزات الواضحات** والدلالات الظاهرات على نبوته وصحة رسالته ، ثم تلطف لهم فى الدفع عنه؛ فقال : ﴿ **وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم** ﴾ ولم يكن قوله هذا لشك منه ، فإنه كان مؤمنا كما وصفه الله ، ولا يشك المؤمن ، ومعنى ﴿**يصبكم الذى يعدكم** ﴾ : أنه إذا يصبكم كله فلا أقل من أن يصيبكم بعضه ، وحذفت النون من يكن فى الموضعين ؛ تخفيفا لكثرة الاستعمال ، كما قال سيبويه ، وقال أبو عبيدة وأبو الهيثم بعض هنا بمعنى كل ، أى يصبكم كل الذى يعدكم ، وأنشد أبو عبيدة على هذا قول لبيد :

تراك أمكنة إذا لم أرضها ... أو يرتبط بعض النفوس حمامها

أى كل النفوس ، وقد اعترض عليه ، وأجيب بأن البعض قد يستعمل فى لغة العرب بمعنى الكل ، كما فى قول الشاعر :

قد يدرك المتأنى بعض حاجته ... وقد يكون مع المستعجل الزلل

وقول الآخر :

إن الأمور إذا الأحداث دبرها ... دون الشيوخ ترى فى بعضها خللا

وليس فى البيتين ما يدّل على ما زعموه ، وأما بيت لبيد فقيل : إنه أراد ببعض النفوس نفسه ، ولا ضرورة تلجئ إلى حمل ما فى الآية على ذلك ، لأنه أراد التنزّل معهم وإيهامهم أنه لا يعتقد صحة نبوّته كما يفيده قوله : ﴿ **يكتم إيمانه** ﴾ قال أهل المعانى : وهذا على المظاهرة فى الحجاج ، كأنه قال لهم : أقل ما يكون فى صدقه أن يصيبكم بعض الذى يعدكم ، وفى بعض ذلك هلاككم ، فكأن الحاصل بالبعض هو الحاصل بالكل . وقال الليث : بعض ها هنا صلة يريد يصبكم الذى يعدكم . وقيل : يصبكم هذا العذاب الذى يقوله فى الدنيا ، وهو بعض

ما يتوعدكم به من العذاب . وقيل : إنه وعدهم بالثواب والعقاب ، فإذا كفروا أصابهم العقاب، وهو بعض ما يتوعدهم به ﴿ **إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب** ﴾ هذا من تمام كلام الرجل المؤمن ، وهو احتجاج آخر ذو وجهين : أحدهما : أنه لو كان مسرفا كذابا لما هداه الله إلى البينات ولا أيده بالمعجزات ، وثانيهما : أنه إذا كان كذلك خذله الله وأهلكه ، فلا حاجة لكم إلى قتله ، والمسرف : المقيم على المعاصى المستكثر منها ، والكذاب المفترى .

﴿ **يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض** ﴾ ذكرهم ذلك الرجل المؤمن ما هم فيه من الملك ليشكروا الله ولا يتمادوا فى كفرهم ، ومعنى ﴿ **ظاهرين** ﴾ : الظهور على الناس والغلبة لهم والاستعلاء عليهم ، والأرض : أرض مصر ، وانتصاب ﴿ **ظاهرين** ﴾ على الحال ﴿ **فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا** ﴾ أى من يمنعنا من عذابه ويحول بيننا وبينه عند مجيئه ، وفى هذا تحذير منه لهم من نقمة الله بهم وإنزال عذابه عليهم ، فلما سمع فرعون ما قاله هذا الرجل من النصح الصحيح جاء بمراوغة يوهم بها قومه أنه لهم من النصيحة والرعاية بمكان مكين ، وأنه لا يسلك بهم إلا مسلكا يكون فيه جلب النفع لهم ودفع الضر عنهم ، ولهذا قال : ﴿ **ما أريكم إلا ما أرى** ﴾ قال ابن زيد : أى ما أشيرعليكم إلا بما أرى لنفسى . وقال الضحاك : ما أعلمكم إلا ما أعلم ، والرؤيا هنا هى : القلبية لا البصرية، والمفعول الثانى هو إلا ما أرى ﴿ **وما أهديكم إلا سبيل الرشاد** ﴾ أى ما أهديكم بهذا الرأى إلا لطريق الحق . قرأ الجمهور : ﴿ **الرشاد** ﴾ بتخفيف الشين، وقرأ معاذ بن جبل بتشديدها على أنها صيغة مبالغة كضراب. وقال النحاس : هى لحن ، ولا وجه لذلك .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وقال رجل مؤمن من آل فرعون** ﴾ قال : لم يكن فى آل فرعون مؤمن غيره وغير امرأة فرعون وغير المؤمن الذى أنذر موسى الذى قال : ﴿ إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك﴾ [القصص : ٢٠] قال ابن المنذر : أخبرت أن اسمه حزقيل . وأخرج عبد بن حميد عن ابن إسحاق قال : اسمه حبيب . وأخرج البخارى وغيره من طريق عروة قال : قيل لعبد الله بن عمرو بن العاص أخبرنا بأشد شىء صنعه المشركون برسول الله ﷺ ، قال : بينا رسول الله ﷺ يصلى بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه فى عنقه فخنقه خنقا شديداً ، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبيه ودفعه عن النبى ﷺ ثم قال : ﴿ **أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم** ﴾[1] . وأخرج أبو نعيم فى فضائل الصحابة ، والبزار عن على بن أبى طالب أنه قال : أيها الناس ، أخبرونى من أشجع الناس ؟ قالوا : أنت . قال : أما أنا ما بارزت أحدا إلا انتصفت منه، ولكن أخبرونى بأشجع الناس ؟ قالوا : لا نعلم فمن ؟ قال : أبو بكر، رأيت رسول الله ﷺ وأخذته قريش ، فهذا يجنبه وهذا يتلتله ، وهو يقولون : أنت الذى جعلت

(١) أحمد ٢/ ٢٠٤ والبخارى فى مناقب الأنصار (٣٨٥٦) .

الآلهة إلها واحدا ، قال : فواللّه ما دنا منا أحد إلا أبو بكر يضرب هذا ويجيء هذا ويتلتل هذا، وهو يقول : ﴿ ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربى اللّه ﴾ ، ثم رفع بردة كانت عليه، فبكى حتى اخضلت لحيته ، ثم قال : أنشدكم آمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر ؟ فسكت القوم ، فقال : ألا تجيبون ؟ فواللّه لساعة من أبى بكر خير من مثل مؤمن آل فرعون ، وذاك رجل يكتم إيمانه وهذا رجل أعلن إيمانه .

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ (٣٧) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) ﴾ .

ثم كرر ذلك الرجل المؤمن تذكيرهم ، وحذرهم أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم . فقال اللّه حاكيا عنه : ﴿ **وقال الذى آمن يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب** ﴾ أى مثل يوم عذاب الأمم الماضيةالذين تحزبوا على أنبيائهم . وأفرد اليوم لأن جمع الأحزاب قد أغنى عن جمعه ، ثم فسر الأحزاب فقال : ﴿ **مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم** ﴾ أى مثل حالهم فى العذاب ، أو مثل عادتهم فى الإقامة على التكذيب ، أو مثل جزاء ما كانوا عليه من الكفر والتكذيب ﴿ **وما اللّه يريد ظلما للعباد** ﴾ أى لا يعذبهم بغير ذنب ، ونفى الإرادة للظلم يستلزم نفى الظلم بفحوى الخطاب . ثم زاد فى الوعظ والتذكير فقال : ﴿ **ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد** ﴾ قرأ الجمهور: ﴿ **التناد** ﴾ بتخفيف الدال وحذف الياء . والأصل : التنادى، وهو التفاعل من النداء ، يقال: تنادى القوم ، أى نادى بعضهم بعضا ، وقرأ الحسن وابن السميقع ويعقوب

وابن كثير ومجاهد بإثبات الياء على الأصل ، وقرأ ابن عباس والضحاك وعكرمة بتشديد الدال . قال بعض أهل اللغة هو لحن ، لأنه من ندّ يندّ : إذا مرّ على وجهه هاربا . قال النحاس : وهذا غلط ، والقراءة حسنة على معنى التنافى قال الضحاك : فى معناه : أنهم إذا سمعوا بزفير جهنم ندّوا هربا . فلا يأتون قطرا من أقطار الأرض إلا وجدوا صفوفا من الملائكة فيرجعون إلى المكان الذى كانوا فيه ، فذلك قوله : ﴿ **يوم التناد** ﴾ وعلى قراءة الجمهور المعنى : يوم ينادى بعضهم بعضا ، أو ينادى أهل النار أهل الجنة وأهل الجنة أهل النار، أو ينادى فيه بسعادة السعداء وشقاوة الأشقياء ، أو يوم ينادى فيه كل أناس بإمامهم ، ولا مانع من الحمل على جميع هذه المعانى ، وقوله : ﴿**يوم تولون مدبرين** ﴾ بدل من يوم التناد ، أى منصرفين عن الموقف إلى النار ، أو فارين منها . قال قتادة ومقاتل : المعنى : إلى النار بعد الحساب ، وجملة : ﴿ **ما لكم من اللّه من عاصم** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى مالكم من يعصمكم من عذاب اللّه ويمنعكم منه ﴿ **ومن يضلل اللّه فما له من هاد** ﴾ يهديه إلى طريق الرشاد .

ثم زاد فى وعظهم وتذكيرهم فقال : ﴿ **ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات** ﴾ أى يوسف ابن يعقوب ، والمعنى : أن يوسف بن يعقوب جاءهم بالمعجزات والآيات الواضحات من قبل مجىء موسى إليهم ، أى جاء إلى آبائكم ، فجعل المجىء إلى الآباء مجيئًا إلى الأنبياء وقيل : المراد بيوسف هنا : يوسف بن إفراثيم بن يوسف بن يعقوب ، وكان أقام فيهم نبيًا عشرين سنة . وحكى النقاش عن الضحاك أن اللّه بعث إليهم رسولا من الجن يقال له يوسف ، والأول أولى . وقد قيل : إن فرعون موسى أدرك أيام يوسف بن يعقوب لطول عمره ﴿ **فما زلتم فى شك مما جاءكم به** ﴾ من البينات ولم تؤمنوا به ﴿ **حتى إذا هلك** ﴾ يوسف ﴿ **قلتم لن يبعث اللّه من بعده رسولا** ﴾ فكفروا به فى حياته وكفروا بمن بعده من الرسل بعد موته ﴿ **كذلك يضل اللّه من هو مسرف مرتاب**﴾ أى مثل ذلك الضلال الواضح يضل اللّه من هو مسرف فى معاصى اللّه مستكثر منها مرتاب في دين اللّه شاك فى وحدانيته ووعده ووعيده .

والموصول فى قوله : ﴿ **الذين يجادلون فى آيات اللّه** ﴾ بدل من « من » والجمع باعتبار معناها . أو بيان لها ، أو صفة ، أو فى محل نصب بإضمار أعنى ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أى هم الذين ، أو مبتدأ وخبره يطبع ، و ﴿ **بغير سلطان** ﴾ متعلق بيجادلون ، أى يجادلون فى آيات اللّه بغير حجة واضحة ، و﴿ **أتاهم** ﴾ صفة لسلطان ﴿ **كبر مقتًا عند اللّه وعند الذين آمنوا**﴾ يحتمل أن يراد به التعجب ، وأن يراد به الذم كبئس ، وفاعل كبر ضمير يعود إلى الجدال المفهوم من يجادلون . وقيل : فاعله ضمير يعود إلى من فى : ﴿ **من هو مسرف** ﴾ والأول أولى . وقوله : ﴿ **عند اللّه** ﴾ متعلق بكبر ، وكذلك ﴿ **عند الذين آمنوا** ﴾ قيل : هذا من كلام الرجل المؤمن . وقيل : ابتداء كلام من اللّه سبحانه ﴿ **كذلك يطبع اللّه على كل قلب متكبر جبار** ﴾ أى كما طبع على قلوب هؤلاء المجادلين فكذلك يطبع ، أي يختم على كل قلب متكبر جبار . قرأ

الجمهور بإضافة قلب إلى متكبر ، واختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد ، وفى الكلام حذف وتقديره : كذلك يطبع الله على كل قلب كل متكبر ، فحذف كل الثانية لدلالة الأولى عليها ، والمعنى : أنه سبحانه يطبع على قلوب جميع المتكبرين الجبارين . وقرأ أبو عمرو وابن محيصن وابن ذكوان عن أهل الشام بتنوين قلب، على أن متكبر صفة له . فيكون القلب مرادا به الجملة، لأن القلب هـو محل التكبر وسائر الأعضاء تبع له فى ذلك وقرأ ابن مسعود :على « على قلب كل متكبر » .

ثم لما سمع فرعون هذا رجع إلى تكبره وتجبره معرضا عن الموعظة نافرا من قبولها وقال : ﴿ **يا هامان ابن لى صرحا** ﴾ أى قصراً مشيداً كما تقدم بيان تفسيره ﴿ **لعلى أبلغ الأسباب** ﴾ أى الطرق . قال قتادة والزهرى والسدّى والأخفش : هى الأبواب. وقوله : ﴿ **أسباب السموات** ﴾ بيان للأسباب ، لأن الشىء إذا أبهم ثم فسر كان أوقع فى النفوس ، وأنشد الأخفش عند تفسيره للآية بيت زهير :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو رام أسباب السماء بسلم

وقيل : أسباب السموات : الأمور التى يستمسك بها ﴿ **فأطلع إلى إله موسى** ﴾ قرأ الجمهور بالرفع عطفا على أبلغ . فهو على هذا داخل فى حيز الترجى . وقرأ الأعرج والسلمى وعيسى بن عمر وحفص بالنصب على جواب الأمر فى قوله : ﴿ **ابن لى** ﴾ أو على جواب الترجى كما قال أبو عبيد وغيره . قال النحاس : ومعنى النصب خلاف معنى الرفع ، لأن معنى النصب : متى بلغت الأسباب اطلعت ، ومعنى الرفع : لعلى أبلغ الأسباب ولعلى أطلع بعد ذلك ، وفى هذا دليل على أن فرعون كان بمكان من الجهل عظيم ، وبمنزلة من فهم حقائق الأشياء سافلة جدًا ﴿ **وإنى لأظنه كاذبا** ﴾ أى وإنى لأظن موسى كاذبا فى ادعائه بأن له إلها ، أو فيما يدّعيه من الرسالة ﴿ **وكذلك زين لفرعون سوء عمله** ﴾ أى ومثل ذلك التزيين زين الشيطان لفرعون سوء عمله من الشرك والتكذيب ، فتمادى فى الغى واستمر على الطغيان ﴿ **وصدّ عن السبيل** ﴾ أى سبيل الرشاد . قرأ الجمهور : « وصدَ » بفتح الصاد والدال ، أى صد فرعون الناس عن السبيل ، وقرأ الكوفيون : « وصُد » بضم الصاد مبنيًا للمفعول ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم ، ولعل وجه الاختيار لها منهما كونها مطابقة لما أجمعوا عليه فى زين من البناء للمفعول ، وقرأ يحيى بن وثاب وعلقمة : « صد » بكسر الصاد ، وقرأ ابن أبى إسحاق وعبدالرحمن بن أبى بكرة بفتح الصاد وضم الدال منونًا على أنه مصدر معطوف على سوء عمله، أى زين الشيطان سوء العمل والصدّ ﴿ **وما كيد فرعون إلا فى تباب** ﴾ التباب : الخسار والهلاك ومنه ﴿ تبت يدا أبى لهب﴾ [المسد : ١] .

ثم إن ذلك الرجل المؤمن أعاد التذكير والتحذير كما حكى الله عنه بقوله : ﴿ **وقال الذى آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد** ﴾ أى اقتدوا بى فى الدين أهدكم طريق الرشاد ، وهو

الجنة . وقيل : هذا قول موسى ، والأول أولى . وقرأ معاذ بن جبل : « الرشاد » بتشديد الشين كما تقدم قريبا فى قول فرعون ووقع فى المصحف ﴿ **اتبعون** ﴾ بدون ياء ، وكذلك قرأ أبو عمرو ونافع بحذفها فى الوقف وإثباتها فى الوصل ، وقرأ يعقوب وابن كثير بإثباتها وصلا ووقفًا ، وقرأ الباقون بحذفها وصلا ووقفًا فمن أثبتها فعلى ما هو الأصل ، ومن حذفها فلكونها حذفت فى المصحف ﴿ **يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع** ﴾ يتمتع بها أياما ثم تنقطع وتزول ﴿ **وإن الآخرة هى دار القرار** ﴾ أى الاستقرار لكونها دائمة لا تنقطع ومستمرة لا تزول . ﴿ **من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها** ﴾ أى من عمل فى دار الدنيا معصية من المعاصى كائنة ما كانت فلا يجزى إلا مثلها ولا يعذب إلا بقدرها، والظاهر شمول الآية لكل ما يطلق عليه اسم السيئة. وقيل: هى خاصة بالشرك ، ولا وجه لذلك ﴿ **ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن** ﴾ أى من عمل عملا صالحا مع كونه مؤمنا بالله وبما جاءت به رسله ﴿**فأولئك**﴾ الذين جمعوا بين العمل الصالح: والإيمان ﴿ **يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب** ﴾ أى بغير تقدير ومحاسبة . قال مقاتل: يقول لا تبعة عليهم فيما يعطون فى الجنة من الخير ، وقيل : العمل الصالح هو لا إله إلا الله. قرأ الجمهور : ﴿ **يدخلون** ﴾ بفتح التحتية مبنيا للفاعل . وقرأ ابن كثير وابن محيصن وأبو عمر ويعقوب وأبو بكر عن عاصم بضمها مبنيا للمفعول .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس: ﴿ **مثل دأب** ﴾ قال : مثل حال . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة: ﴿ **مثل دأب قوم نوح** ﴾ قال : هم الأحزاب : قوم نوح وعاد وثمود. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات** ﴾ قال : رؤيا يوسف ، وفى قوله :﴿ **الذين يجادلون فى آيات الله** ﴾ قال يهود . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن : ابن عباس فى قوله: ﴿ **إلا فى تباب** ﴾ قال : خسران . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **إنما هذه الحياة الدنيا متاع**﴾ قال : الدنيا جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف سنة . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الحياة الدنيا متاع وليس من متاعها شىء أفضل من المرأة الصالحة ، التى إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا غبت عنها حفظتك فى نفسها ومالك » (١) .

﴿ **وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ**

(١) أخرج نحوه مسلم فى الرضاع (١٤٦٧/٥٩) وابن ماجة فى النكاح (١٨٥٥) كلاهما عن عبد الله بن عمرو.

تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦) وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٥٠) إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢) ﴾ .

كرر ذلك الرجل المؤمن دعاءهم إلى اللّه وصرّح بإيمانه ، ولم يسلك المسالك المتقدمة من إيهامه لهم أنه منهم، وأنه إنما تصدّى التذكير كراهة أن يصيبهم بعض ما توعدهم به موسى ، كما يقوله الرجل المحب لقومه من التحذير عن الوقوع فيما يخاف عليهم الوقوع فيه فقال: ﴿ **ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار** ﴾ أى أخبرونى عنكم كيف هذه الحال : أدعوكم إلى النجاة من النار ودخول الجنة بالإيمان باللّه وإجابة رسله، وتدعوننى إلى النار بما تريدونه منى من الشرك ؟ قيل : معنى ﴿ **ما لى أدعوكم** ﴾ : ما لكم أدعوكم ؟ كما تقول: ما لى أراك حزينا ، أى مالك . ثم فسر الدعوتين فقال : ﴿ **تدعوننى لأكفر باللّه وأشرك به ما ليس لى به علم** ﴾ ، فقوله : تدعوننى بدل من تدعوننى الأولى أو بيان لها ﴿ **ما ليس لى به علم** ﴾ أى ما لا علم لى بكونه شريكا للّه ﴿**وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار**﴾ أى إلى العزيز فى انتقامه ممن كفر ﴿**الغفار**﴾ لذنب من آمن به .

﴿ **لا جرم** ﴾ قد تقدّم تفسير هذا فى سورة هود، وجرم فعل ماض بمعنى حقّ ، ولا الداخلة عليه لنفى ما ادعوه وردّ ما زعموه ، وفاعل هذا الفعل هو قوله: ﴿**أنما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة** ﴾ أى حق ووجب بطلان دعوته. قال الزجاج: معناه : ليس له استجابة دعوة تنفع وقيل: ليس له دعوة توجب له الألوهية فى الدنيا ولا فى الآخرة. وقال الكلبى : ليس له شفاعة ﴿ **وأن مردّنا إلى اللّه** ﴾ أى مرجعنا ومصيرنا إليه بالموت أولا، وبالبعث آخرا ، فيجازى كل أحد بما يستحقه من خير وشرّ ﴿ **وأن المسرفين هم أصحاب النار** ﴾ أى المستكثرين من معاصى اللّه. قال قتادة وابن سيرين: يعنى المشركين. وقال مجاهد والشعبى: هم السفهاء السفاكون للدماء بغير حقها. وقال عكرمة: الجبارون والمتكبرون. وقيل: هم الذين تعدّوا حدود اللّه، و « أن » فى الموضعين عطف على « أن » فى قوله: ﴿ **أنما تدعوننى إليه** ﴾ والمعنى : وحق أن مردّنا إلى اللّه ، وحق أن المسرفين إلخ ﴿ **فستذكرون ما أقول لكم** ﴾ إذا نزل بكم العذاب وتعلمون أنى قد بالغت فى نصحكم وتذكيركم، وفى هذا الإبهام من التخويف والتهديد مالا يخفى ﴿ **وأفوض أمرى إلى اللّه**﴾ أى أتوكل عليه وأسلم أمرى إليه. قيل: إنه قال هذا لما أرادوا الإيقاع به. قال مقاتل: هرب هذا المؤمن إلى الجبل فلم يقدروا عليه . وقيل : القائل هو: موسى ، والأول أولى .

﴿ **فوقاه اللّه سيئات ما مكروا** ﴾ أى وقاه اللّه ما أرادوا به من المكر السيئ ، وما أرادوه به من الشر . قال قتادة : نجاه اللّه مع بنى إسرائيل ﴿ **وحاق بآل فرعون سوء العذاب** ﴾ أى أحاط بهم ونزل عليهم سوء العذاب . قال الكسائى : يقال : حاق يحيق حيقا وحيوقا : إذا نزل ولزم. قال الكلبى : غرقوا فى البحر ودخلوا النار ، والمراد بآل فرعون : فرعون وقومه ، وترك التصريح به للاستغناء بذكرهم عن ذكره لكونه أولى بذلك منهم ، أو المراد بآل فرعون فرعون نفسه . والأول أولى لأنهم قد عذبوا فى الدنيا جميعا بالغرق ، وسيعذبون فى الآخرة بالنار. ثم بين سبحانه ما أجمله من سوء العذاب ، فقال :﴿ **النار يعرضون عليها غدوا وعشيا** ﴾ فارتفاع النار على أنها بدل من سوء العذاب . وقيل : على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أو مبتدأ وخبره يعرضون ، والأول أولى ، ورجحه الزجاج وعلى الوجهين الأخيرين تكون الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر . وقرئ بالنصب على تقدير فعل يفسره يعرضون من حيث المعنى ، أى يصلون النار يعرضون عليها ، أو على الاختصاص ، وأجاز الفراء الخفض على البدل من العذاب . وذهب الجمهور أن هذا العرض هو فى البرزخ ، وقيل : هو فى الآخرة . قال الفراء: ويكون فى الآية تقديم وتأخير ، أى أدخلوا آل فرعون أشد العذاب النار يعرضون عليها غدوّا وعشيا ، ولا ملجئ إلى هذا التكلف فإن قوله : ﴿ **ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب** ﴾ يدل دلالة واضحة على أن ذلك العرض هو فى البرزخ ، وقوله : ﴿ **أدخلوا** ﴾ هو بتقدير القول ، أى يقال للملائكة : أدخلوا آل فرعون و﴿ **أشد العذاب** ﴾ هو عذاب النار . قرأ حمزة والكسائى ونافع وحفص: ﴿ **أدخلوا** ﴾ بفتح الهمزة وكسر الخاء، وهو على تقدير القول كما ذكر. وقرأ الباقون : «ادخلوا» بهمزة وصل من دخل يدخل أمرا لآل فرعون بالدخول، وهو على تقدير حرف النداء، أى ادخلوا يا آل فرعون أشد العذاب .

﴿ **وإذ يتحاجون فى النار** ﴾ الظرف منصوب بإضمار اذكر . والمعنى : اذكر لقومك وقت تخاصمهم فى النار . ثم بين سبحانه هذا التخاصم فقال : ﴿**فيقول الضعفاء للذين استكبروا**﴾ عن الانقياد للأنبياء والاتباع لهم ، وهم رؤساء الكفر ﴿ **إنا كنا لكم تبعا** ﴾ جمع لتابع ، كخدم وخادم ، أو مصدر واقع موقع اسم الفاعل أى تابعين أو على حذف مضاف ، أى ذوى تبع . قال البصريون : التبع يكون واحدا ويكون جمعا . وقال الكوفيون : هو جمع لا واحد له ﴿**فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار** ﴾ أى هل تدفعون عنا نصيبا منها أو تحملونه معناه ، وانتصاب ﴿**نصيبا** ﴾ بفعل مقدّر يدل عليه مغنون ، أى هل تدفعون عنا نصيبا أو تمنعون على تضمينه معنى حاملين ، أى هل أنتم حاملون معنا نصيبا، أو على المصدرية : ﴿ **قال الذين استكبروا إنا كل فيها** ﴾ هذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر والمعنى : إنا نحن وأنتم جميعا فى جهنم ، فكيف نغنى عنكم. قرأ الجمهور: ﴿ **كل** ﴾ بالرفع على الابتداء ، وخبره : ﴿ **فيها** ﴾ والجملة خبر إن،

قاله الأخفش . وقرأ ابن السميقع وعيسى بن عمر: « كلا » بالنصب . قال الكسائى والفراء : على التأكيد لاسم إن بمعنى كلنا ، وتنوينه عوض عن المضاف إليه . وقيل : على الحال ورجحه ابن مالك ﴿ **إن اللّه قد حكم بين العباد** ﴾ أى قضى بينهم بأن فريقا فى الجنة، وفريقا فى السعير.

﴿ **وقال الذين فى النار** ﴾ من الأمم الكافرة ، مستكبرهم وضعيفهم ﴿ **لخزنة جهنم** ﴾ جمع خازن ، وهو القوام بتعذيب أهل النار ﴿ **ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب** ﴾ يوما ظرف ليخفف ، ومفعول يخفف محذوف ، أى يخفف عنا شيئا من العذاب مقدار يوم أو فى يوم ، وجملة : ﴿ **قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، والاستفهام للتوبيخ والتقريع ﴿ **قالوا بلى** ﴾ أى أتونا بها فكذبناهم ولم نؤمن بهم ولا بما جاؤوا به من الحجج الواضحة ، فلما اعترفوا ﴿ **قالوا** ﴾ أى قال لهم الملائكة الذين هم خزنة جهنم ﴿ **فادعوا** ﴾ أى إذا كان الأمر كذلك فادعوا أنتم ، فإنا لا ندعوا لمن كفر باللّه وكذب رسله بعد مجيئهم بالحجج الواضحة . ثم أخبروهم بأن دعاءهم لا يفيد شيئًا فقالوا : ﴿ **وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال** ﴾ أى فى ضياع وبطلان وخسار وتبار ، وجملة : ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا** ﴾ مستأنفة من جهته سبحانه ، أى نجعلهم الغالبين لأعدائهم القاهرين لهم ، والموصول فى محل نصب عطفا على رسلنا ، أى لننصر رسلنا ، وننصر الذين آمنوا معهم ﴿ **فى الحياة الدنيا** ﴾ بما عودّهم اللّه من الانتقام منهم بالقتل والسلب والأسر والقهر ﴿ **ويوم يقوم الأشهاد** ﴾ وهو يوم القيامة . قال زيد بن أسلم : الأشهاد : هم الملائكة والنبيون . وقال مجاهد والسدّى : الأشهاد : الملائكة تشهد للأنبياء بالإبلاغ، وعلى الأمم بالتكذيب . قال الزجاج . الأشهاد جمع شاهد مثل صاحب وأصحاب . قال النحاس : ليس باب فاعل أن يجمع على أفعال ولا يقاس عليه ، ولكن ما جاء منه مسموعا أدى على ما يسمع ، فهو على هذا جمع شهيد، مثل شريف وأشراف، ومعنى نصرهم يوم يقوم الأشهاد: أن اللّه يجازيهم بأعمالهم فيدخلهم الجنة ويكرمهم بكراماته ويجازى الكفار بأعمالهم فيلعنهم ويدخلهم النار ، وهو معنى قوله : ﴿ **يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة** ﴾ أى البعد عن الرحمة ﴿ **ولهم سوء الدار** ﴾ أى النار . ويوم بدل من يوم يقوم الأشهاد ، وإنما لم تنفعهم المعذرة لأنها معذرة باطلة وتعلة داحضة وشبهة زائغة . قرأ الجمهور : « تنفع » بالفوقية. وقرأ نافع والكوفيون بالتحتية ، والكل جائز فى اللغة.

وقد أخرج البخارى فى تاريخه ، وابن المنذر عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **وأن المسرفين هم أصحاب النار** ﴾ قال : السفاكين للدّماء بغير حقها . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمر قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، يقال له : هذا

مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة » (١) زاد ابن مردويه . ثم قرأ : ﴿**النار يعرضون عليها غدوّا وعشيا**﴾. وأخرج البزار وابن أبى حاتم، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال : « ما أحسن محسن مسلم أو كافر إلاأثابه الله » ، قلنا : يا رسول الله ، ما إثابة الكافر ؟ قال : « المال والولد والصحة وأشباه ذلك » ، قلنا : وما إثابته فى الآخرة ؟ قال : « عذابا دون العذاب » ، وقرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **ادخلوا آل فرعون أشد العذاب** ﴾ (٢) . وأخرج أحمد والترمذى وحسنه ، وابن أبى الدنيا والطبرانى وابن مردويه، والبيهقى عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ قال : « من ردّ عن عرض أخيه ردّ الله عن وجهه نار جهنم يوم القيامة ، ثم تلا : ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا** ﴾ (٣) . وأخرج ابن مردويه من حديث أبى هريرة مثله .

﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٥٤) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٥٥) إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦) لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٩) وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٦١) ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ**

---

(١) البخارى فى الجنائز (١٣٨٠) والرقاق (٦٥١٥) ومسلم فى الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٦٦/ ٦٥، ٦٦) وابن ماجه (٤٢٧٠) .

(٢) زوائد البزار ١/ ٤٤٨ وصححه الحاكم ٢/ ٢٥٣ وقال: « صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وتعقبه الذهبى فقال: « عتبة واه » والبيهقى فى الشعب (٢٧٧) وقال الهيثمى فى المجمع ٣/ ١١٤ : « رواه البزار فيه عتبة بن يقظان وفيه كلام وقد وثقه ابن حبان ، وبقية رجاله ثقات » .

(٣) أحمد ٦/ ٤٤٩، ٤٥٠ والترمذى فى البر والصلة (١٩٣١) وقال : « هذا حديث حسن » والبيهقى فى الشعب (٧٦٣٥ ، ٧٦٣٦) ط دار الكتب العلمية .

فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥) ﴾ .

قوله : ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب** ﴾ هذا من جملة ما قصه اللّه سبحانه قريبا من نصره لرسله ، أى آتيناه التوراة والنبوّة ، كما فى قوله سبحانه : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ﴾ [المائدة : ٤٤] قال مقاتل : الهدى من الضلالة ، يعنى : التوراة ﴿**وأورثنا بنى إسرائيل الكتاب هدى وذكرى لأولى الألباب** ﴾ المراد بالكتاب التوراة ، ومعنى ﴿ **أورثنا** ﴾ أن اللّه سبحانه لما أنزل التوراة على موسى بقيت بعده فيهم وتوارثوها خلفا عن سلف . وقيل : المراد بالكتاب سائر الكتب المنزلة على أنبياء بنى إسرائيل بعد موت موسى . و ﴿**هدى**﴾ و ﴿ **ذكرى** ﴾ فى محل نصب على أنهما مفعول لأجله ، أى لأجل الهدى والذكر ، أو على أنهما مصدران فى موضع الحال أى هاديا ومذكرا ، والمراد بأولى الألباب : أهل العقول السليمة . ثم أمر اللّه رسوله ﷺ بالصبر على الأذى فقال : ﴿ **فاصبر إن وعد اللّه حق** ﴾ أي اصبر على أذى المشركين كما صبر من قبلك من الرسل ، إن وعد اللّه الذى وعد به رسله حق لا خلف فيه ولا شك فى وقوعه كما فى قوله : ﴿ إنا لننصر رسلنا﴾ [غافر : ٥١ ﴾ وقوله : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون . وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ [الصافات : ١٧١ ـ ١٧٣] قال الكلبى : نسخ هذا بآية السيف .

ثم أمره سبحانه بالاستغفار لذنبه فقال : ﴿ **واستغفر لذنبك** ﴾ قيل : المراد : ذنب أمتك ، فهو على حذف مضاف . وقيل : المراد : الصغائر عند من يجوزّها على الأنبياء. وقيل: هو مجرد تعبد له ﷺ بالاستغفار لزيادة الثواب ، وقد غفر اللّه له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ﴿ **وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار** ﴾ أي دم على تنزيه اللّه ملتبسا بحمده . وقيل : المراد : صل فى الوقتين صلاة العصر وصلاة الفجر . قاله الحسن وقتادة . وقيل : هما صلاتان ركعتان غدوة وركعتان عشية ، وذلك قبل أن تفرض الصلوات الخمس : ﴿**إن الذين يجادلون فى آيات اللّه بغير سلطان أتاهم** ﴾ أى بغير حجة ظاهرة واضحة جاءتهم من جهة اللّه سبحانه ﴿ **إن فى صدورهم إلا كبر**﴾ أى ما فى قلوبهم إلا تكبر عن الحق يحملهم على تكذيبك ، وجملة : ﴿ **ما هم ببالغيه** ﴾ صفة لكبر قال الزجاج : المعنى : ما فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغى إرادتهم فيه ، فجعله على حذف المضاف . وقال غيره: ما هم ببالغى الكبر. وقال ابن قتيبة : المعنى : إن فى صدورهم إلا كبر ، أى تكبر على محمد ﷺ وطمع أن يغلبوه وما هم ببالغى ذلك، وقيل: المراد بالكبر : الأمر الكبير، أى يطلبون النبوة،أو يطلبون أمرًا كبيرًا يصلون به إليك من القتل ونحوه ولا يبلغون ذلك . وقال مجاهد: معناه : فى صدورهم عظمة ما هم ببالغيها . والمراد بهذه الآية :

المشركون. وقيل : اليهود ، كما سيأتى بيانه آخر البحث إن شاء اللّه. ثم أمره اللّه سبحانه بأن يستعيذ باللّه من شرورهم فقال ﴿**فاستعذ باللّه إنه هو السميع البصير**﴾ أى فالتجئ إليه من شرهم وكيدهم وبغيهم عليك إنه السميع لأقوالهم البصير بأفعالهم لا تخفى عليه من ذلك خافية.

ثم بين سبحانه عظيم قدرته فقال : ﴿ **خلق السموات والرض أكبر من خلق الناس** ﴾ أى أعظم فى النفوس وأجل فى الصدور ، لعظم أجرامها واستقرارها من غير عمد وجريان الأفلاك بالكواكب من غير سبب ، فكيف ينكرون البعث وإحياء ما هو دونهما من كل وجه كما فى قوله : ﴿ أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾ [يس: ٨١] قال أبو العالية : المعنى : لخلق السموات والأرض أعظم من خلق الدجال حين عظمته اليهود . وقال يحيى بن سلام : هو احتجاج على منكر البعث ،و أى هما أكبر من إعادة خلق الناس ﴿**ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ بعظيم قدرة اللّه وأنه لا يعجزه شىء . ثم لما ذكر سبحانه الجدال بالباطل ذكر مثالا للباطل والحق أنهما لا يستويان فقال : ﴿ **وما يستوى الأعمى والبصير** ﴾ أى الذى يجادل بالباطل ، والذى يجادل بالحق ﴿ **ولا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء** ﴾ أى ولا يستوى المحسن بالإيمان والعمل الصالح والمسىء بالكفر والمعاصى ، وزيادة « لا » فى ﴿ **ولا المسىء** ﴾ للتأكيد ﴿ قليلا ما يتذكرون ﴾ قرأ الجمهور : « يتذكرون » بالتحتية على الغيبة ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم ، لأن قبلها وبعدها على الغيبة لا على الخطاب ، وقرأ الكوفيون بالفوقية على الخطاب بطريقة الالتفات ، أى تذكرا قليلا ما تتذكرون .

﴿**إن الساعة لآتية لا ريب فيها**﴾ أى لا شك فى مجيئها وحصولها ﴿**ولكن أكثر الناس لا يؤمنون**﴾ بذلك ولا يصدقونه لقصور أفهامهم وضعف عقولهم عن إدراك الحجة، والمراد بأكثر الناس : الكفار الذين ينكرون البعث . ثم لما بين سبحانه أن قيام الساعة حق لا شك فيه ولا شبهة ، وأرشد عباده إلى ما هو الوسيلة إلى السعادة فى دار الخلود ، فأمر رسوله ﷺ أن يحكى عنه ما أمره بإبلاغه وهو : ﴿ **وقال ربكم أدعونى أستجب لكم** ﴾ قال أكثر المفسرين: المعنى : وحدونى واعبدونى أتقبل عبادتكم وأغفر لكم . وقيل : المراد بالدعاء: السؤال بجلب النفع ودفع الضر . قيل : الأول أولى لأن الدعاء فى أكثر استعمالات الكتاب العزيز هو العبادة . قلت : بل الثانى أولى لأن معنى الدعاء حقيقة وشرعا هو الطلب ، فإن استعمل فى غير ذلك فهو مجاز ، على أن الدعاء فى نفسه باعتبار معناه الحقيقى هو عبادة ، بل مخ العبادة كما ورد بذلك الحديث الصحيح ، فاللّه سبحانه قد أمر عباده بدعائه ووعدهم بالإجابة ووعد الحق ، وما يبدل القول لديه ولا يخلف الميعاد .

ثم صرح سبحانه بأن هذا الدعاء باعتبار معناه الحقيقى ، وهو الطلب ، وهو من عبادته فقال : ﴿ **إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين** ﴾ أي ذليلين

صاغرين وهذا وعيد شديد لمن استكبر عن دعاء الله ، وفيه لطف بعباده عظيم ، وإحسان إليهم جليل ، حيث توعد من ترك طلب الخير منه واستدفاع الشر به بهذا الوعيد البالغ وعاقبه بهذه العقوبة العظيمة ، فيا عباد الله وجهوا رغباتكم وعولوا فى كل طلباتكم على من أمركم بتوجيهها إليه وأرشدكم إلى التعويل عليه وكفل لكم الإجابة به بإعطاء الطلبة فهو الكريم المطلق الذى يجيب دعوة الداعى إذا دعاه ويغضب على من لم يطلب من فضله العظيم وملكه الواسع ما يحتاجه من أمور الدنيا والدين ، قيل : وهذا الوعد بالإجابة مقيد بالمشيئة : أى أستجيب لكم إن شئت كقوله سبحانه : ﴿ فيكشف ما تدعون إليه إن شاء ﴾ الله [الأنعام: ٤١]، قرأ الجمهور : ﴿ **سيدخلون** ﴾ بفتح الياء وضم الخاء مبينًا للفاعل، وقرأ ابن كثير وابن محيصن وورش وأبو جعفر بضم الياء وفتح الخاء مبنيا للمفعول .

ثم ذكر سبحانه بعض ما أنعم به على عباده فقال : ﴿ **الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه** ﴾ من الحركات فى طلب الكسب لكونه جعله مظلما باردا تناسبه الراحة بالسكون والنوم ﴿ **والنهر مبصرا** ﴾ أى مضيئا لتبصروا فيه حوائجكم وتنصرفوا فى طلب معايشكم ﴿ **إن الله لذو فضل على الناس** ﴾ يتفضل عليهم بنعمه التى لا تحصى ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يشكرون** ﴾ النعم ولا يعترفون بها ، إما لجحودهم لها وكفرهم بها كما هو شأن الكفار ، أو لإغفالهم للنظر وإهمالهم لما يجب من شكر المنعم ، وهم الجاهلون ﴿**ذلكم الله ربكم خالق كل شىء لا إله إلا هو** ﴾ بين فى هذا كمال قدرته المقتضية لوجوب توحيده ، قرأ الجمهور : ﴿ **خالق** ﴾ بالرفع على أنه خبر بعد الخبر الأول عن المبتدأ ، وقرأ زيد بن على بنصبه على الاختصاص ﴿ **فأنى تؤفكون** ﴾ أى فكيف تنقلبون عن عبادته وتنصرفون عن توحيده: ﴿ **كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون** ﴾ أى مثل الإفك يؤفك الجاحدون لآيات الله المنكرون لتوحيده .

ثم ذكر لهم سبحانه نوعا آخر من نعمه التى أنعم بها عليهم مع ما فى ذلك من الدلالة على كمال قدرته وتفرد بالإلهية فقال : ﴿ **الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء** ﴾ أى موضع قرار فيها تحيون وفيها تموتون ﴿ **والسماء بناء** ﴾ أى سقفا قائما ثابتا . ثم بين بعض نعمه المتعلقة بأنفس العباد فقال: ﴿ **وصوركم فأحسن صوركم** ﴾ أى خلقكم فى أحسن صورة . قال الزجاج خلقكم أحسن الحيوان كله . قرأ الجمهور : ﴿**صوركم** ﴾ بضم الصاد وقرأ الأعمش وأبو رزين بكسرها . قال الجوهرى : والصور بكسر الصاد لغة فى الصور بضمها ﴿ **ورزقكم من الطيبات** ﴾ أى المستلذات ﴿ **ذلكم** ﴾ المبعوث بهذه النعوت الجليلة ﴿ **الله ربكم فتبارك الله رب العالمين** ﴾ أى كثرة خيره وبركته ﴿ **هو الحى لا إله إلا هو** ﴾ أى الباقى الذى لا يفنى المنفرد بالألوهية ﴿**فادعوه مخلصين له الدين** ﴾ أى الطاعة والعبادة ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ قال الفراء : هو خبر وفيه إضمار أمر ، أى احمدوه .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم ، قال السيوطى: بسند صحيح ، عن أبى العالية قال : إن اليهود أتوا النبى ﷺ فقالوا : إن الدجال يكون منا فى آخر الزمان ، ويكون فى أمره فعظموا أمره ، وقالوا : نصنع كذا ونصنع كذا ، فأنزل اللّه : ﴿ **إن الذين يجادلون فى آيات اللّه بغير سلطان أتاهم إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه** ﴾ قال : لا يبلغ الذى يقول ﴿ **فاستعذ باللّه** ﴾ فأمر نبيه أن يتعوذ من فتنة الدجال لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الدجال . وأخرج ابن أبى حاتم عن كعب الأحبار فى الآية قال : هم اليهود نزلت فيهم فيما ينتظرونه من أمر الدجال . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **إن فى صدورهم إلا كبر** ﴾ قال : عظمة قريش .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد والبخارى فى الأدب المفرد ، وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب عن النعمان ابن بشير قال : قال رسول اللّه ﷺ : « الدعاء هو العبادة » ثم قرأ ﴿ **وقال ربكم ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى** ﴾ قال : عن دعائى ﴿ **سيدخلون جهنم داخرين** ﴾ . قال الترمذى : حسن صحيح [١] . وأخرج ابن مردويه والخطيب عن البراء أن رسول اللّه ﷺ قال : « إن الدعاء هو العبادة ﴿ **وقال ربكم ادعونى أستجب لكم** ﴾ » وأخرج ابن جرير وابن مردويه ، وأبو الشيخ فى العظمة عن ابن عباس فى قوله : ﴿**ادعونى أستجب لكم** ﴾ قال : وحدونى أغفر لكم . وأخرج الحاكم وصححه عن جرير ابن عبد اللّه فى الآية قال : اعبدونى . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : قال رسول اللّه ﷺ : « الدعاء الاستغفار » . وأخرج ابن أبى شيبة والحاكم وأحمد عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ : « من لم يدع اللّه يغضب عليه » [٢] . وأخرج أحمد والحكيم الترمذى وأبو يعلى والطبرانى عن معاذ بن جبل عن النبى ﷺ قال : « لا ينفع حذر من قدر، ولكن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم بالدعاء » [٣] . وأخرج الترمذى والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن أنس بن مالك قال : قال رسول اللّه ﷺ : «الدعاء مخّ العبادة » [٤] . وأخرج ابن المنذر والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: قالت:

---

(١) ابن أبى شيبة فى الدعاء (٩٢١٦) وأحمد ٤/ ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٦ والبخارى فى الأدب المفرد (٧١٤) وأبو داود فى الدعاء (١٤٧٩) والترمذى فى التفسير (٣٢٤٧) وفى الدعوات (٣٣٧٢) والنسائى فى التفسير (٤٨٤) وابن ماجه فى الدعاء (٣٨٢٧) وابن حبان فى الأدعية (٨٨٧) وصححه الحاكم ١/ ٤٩١ ووافقه الذهبى وأبو نعيم فى الحلية ٨/ ١٢٠ والبيهقى فى الشعب (١٠٧٠) .

(٢) ابن أبى شيبة فى الدعاء (٩٢١٨) والحاكم ١/ ٤٩ وسكت عنه ، وكذلك الذهبى وأحمد ٢/ ٤٧٧ .

(٣) أحمد ٥/ ٢٣٤ والطبرى ٢٠/ ٢٠١ وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ١٤٩ :«شهر بن حوشب لم يسمع من معاذ».

(٤) الترمذى فى الدعوات (٣٣٧١) وقال : « هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة » .

سئل النبي ﷺ أي العبادة أفضل ؟ فقال : دعاء المرء لنفسه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس قال : من قال : لا إله إلا الله ، فليقل على أثرها : الحمد لله رب العالمين . وذلك قوله : ﴿فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين﴾ [(١)] .

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٦٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠) وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ (٨١) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥) ﴾ .

---

(١) ابن جرير ٢٤ / ٥٣ وصححه الحاكم ٢/ ٤٣٨ على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الأسماء والصفات ١/ ١٧٩ .

أمر اللّه سبحانه رسوله أن يخبر المشركين بأن اللّه نهاه عن عبادة غيره وأمره بالتوحيد فقال : ﴿ **قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون اللّه** ﴾ وهى الأصنام . ثم بين النهى فقال : ﴿ **لما جاءنى البينات من ربى**﴾ وهى الأدلة العقلية والنقلية ، فإنها توجب التوحيد ﴿ **وأمرت أن أسلم اربّ العالمين** ﴾ أى أستسلم له بالإنقياد والخضوع . ثم أردف هذا بذكر دليل من الأدلة على التوحيد فقال : ﴿ **هو الذى خلقكم من تراب** ﴾ أى خلق أباكم الأوّل ، وهو آدم ، وخلقه من تراب يستلزم خلق ذريته منه ﴿ **ثم من نطفة ثم من علقة** ﴾ قد تقدم تفسير هذا فى غير موضع ﴿ **ثم يخرجكم طفلا** ﴾ أى أطفالا ، وأفرده لكونه اسم جنس ، أو على معنى يخرج كل واحد منكم طفلا ﴿ **ثم لتبلغوا أشدكم** ﴾ وهى الحالة التى تجتمع فيها القوّة والعقل ، وقد سبق بيان الأشدّ مستوفى فى الأنعام ، واللام التعليلية فى : ﴿ **لتبلغوا** ﴾ معطوفة على علة أخرى ليخرجكم مناسبة لها ، والتقدير : لتكبروا شيئا فشيئا ، ثم لتبلغوا غاية الكمال ، وقوله : ﴿ **ثم لتكونوا شيوخا**﴾ معطوف على لتبلغوا ، قرأ نافع وحفص وأبو عمرو وابن محيصن وهشام « شيوخا » بضم الشين ، وقرأ الباقون بكسرها ، وقرئ وشيخا على الإفراد لقوله طفلا ، والشيخ من جاوز أربعين سنة ﴿ **ومنكم من يتوفى من قبل** ﴾ أى من قبل الشيخوخة ﴿**ولتبلغوا أجلا مسمى**﴾ أى وقت الموت أو يوم القيامة ، واللام هى لام العاقبة ﴿ **ولعلكم تعقلون** ﴾ أى لكى تعقلوا توحيد ربكم وقدرته البالغة فى خلقكم على هذه الأطوار المختلفة ﴿ **هو الذى يحيى ويميت** ﴾ أى يقدر على الإحياء والإماتة ﴿ **فإذا قضى أمرًا** ﴾ من الأمور التى يريدها ﴿**فإنما يقول له كن فيكون** ﴾ من غير توقف ، وهو تمثيل لتأثير قدرته فى المقدورات عند تعلق إرادته بها ، وقد تقدم تحقيق معناه فى البقرة وفيما بعدها .

ثم عجب سبحانه من أحوال المجادلين فى آيات اللّه فقال ﴿ **ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات اللّه** ﴾ وقد سبق بيان معنى المجادلة ﴿ **أنى يصرفون** ﴾ أى كيف يصرفون عنها مع قيام الأدلة الدالة على صحتها ، وأنها فى أنفسها موجبة للتوحيد . قال ابن زيد : هم المشركون بدليل قوله : ﴿ **الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا** ﴾ قال القرطبى : وقال أكثر المفسرين نزلت فى القدرية [1] . قال ابن سيرين : إن لم تكن هذه الآية نزلت فى القدرية فلا أدرى فيمن نزلت ، ويجاب عن هذا بأن اللّه سبحانه قد وصف هؤلاء بصفة تدلّ على غير ما قالوه ، فقال : ﴿ **الذين كذبوا بالكتاب** ﴾ أى بالقرآن ، وهذا وصف لا يصح أن يطلق على فرقة من فرق الإسلام ، والموصول إما فى محل جرّ على أنه نعت للموصول الأوّل ، أو بدل منه ، ويجوز أن يكون فى محل نصب على الذمّ ، والمراد بالكتاب إما القرآن أو جنس الكتب المنزلة من عند اللّه ، وقوله : ﴿**وبما أرسلنا به رسلنا** ﴾ معطوف على قوله ﴿ **بالكتاب** ﴾ ، ويراد به ما يوحى إلى الرسل من غير كتاب إن كانت

(١) القرطبى : ٨/ ٥٧٧٤٥ .

اللام فى الكتاب للجنس أو سائر الكتب أو سائر الكتب إن كان المراد بالكتاب القرآن ﴿**فسوف يعلمون**﴾ عاقبة أمرهم ووبال كفرهم، وفى هذا وعيد شديد،والظرف فى قوله: ﴿ **إذ الأغلال فى أعناقهم** ﴾ متعلق بـ ﴿ **يعلمون** ﴾ أى فسوف يعلمون وقت كون الأغلال فى أعناقهم ﴿ والسلاسل ﴾ معطوف على الأغلال ، والتقدير : إذ الأغلال والسلاسل فى أعناقهم ، ويجوز أن يرتفع السلاسل على أنه مبتدأ وخبره محذوف لدلالة فى أعناقهم عليه ، ويجوز أن يكون خبره : ﴿ **يسحبون فى الحميم** ﴾ بحذف العائد ، أى يسحبون بها الحميم ، وهذا على قراءة الجمهور برفع السلاسل ، وقرأ ابن عباس وابن مسعود وعكرمة وأبو الجوزاء بنصبها ، وقرؤوا « يسحبون » بفتح الياء مبنيًا للفاعل ، فتكون السلاسل مفعولا مقدمًا ، وقرأ بعضهم بجر السلاسل . قال الفراء : وهذه القراءة محمولة على المعنى ، إذ المعنى : أعناقهم فى الأغلال والسلاسل . وقال الزجاج : المعنى على هذه القراءة : وفى السلاسل يسحبون ، واعترضه ابن الأنبارى بأن ذلك لا يجوز فى العربية ، ومحل يسحبون على تقدير عطف السلاسل على الأغلال،وعلى تقدير كونها مبتدأ وخبرها فى أعناقهم النصب على الحال ، أو لا محل له، بل هو مستأنف جواب سؤال مقدّر ، والحميم هو المتناهى فى الحرّ ، وقيل : الصديد وقد تقدم تفسيره ﴿ **ثم فى النار يسجرون**﴾ يقال : سجرت التنور ، أى أوقدته وسجرّته ملأته بالوقود ، ومنه ﴿ والبحر المسجور ﴾ [الطور:٦] أى المملوء فالمعنى توقد بهم النار أو تملأ بهم . قال مجاهد ومقاتل : توقد بهم النار فصاروا وقودها .

﴿ **ثم قيل لهم أينما كنتم تعبدون من دون اللّه** ﴾ هذا توبيخ وتقريع لهم ، أى أين الشركاء الذين كنتم تعبدونهم من دون اللّه ﴿ **قالوا ضلوا عنا** ﴾ أى ذهبوا وفقدناهم فلا نراهم ، ثم أضربوا عن ذلك وانتقلوا إلى الإخبار بعدمهم وأنه لا وجود لهم فقالوا : ﴿**بل لم نكن ندعو من قبل شيئا** ﴾ أى لم نكن نعبد شيئا ، قلوا هذا لما تبين لهم إنكارا منهم لوجود الأصنام التى كانوا يعبدونها ، بل اعتراف منهم بأن عبادتهم إياها كانت باطلة ﴿**كذلك يضل اللّه الكافرين** ﴾ أى مثل ذلك الضلال يضل به الكافرين حيث عبدوا هذه الأصنام التى أوصلتهم إلى النار . والإشارة بقوله : ﴿ **ذلكم** ﴾ إلى الإضلال المدلول عليه بالفعل ، أى ذلك الإضلال بسبب ﴿ **ما كنتم تفرحون فى الأرض** ﴾ أى بما كنتم تظهرون فى الدنيا من الفرح بمعاصى اللّه والسرور بمخالفة رسله وكتبه . وقيل : المراد بالفرح هنا : بما كنتم تفرحون به من المال والأتباع والصحة. وقيل: بما كنتم تفرحون به من إنكار البعث. وقيل: المراد بالفرح هنا : البطر والتكبر ، وبالمرح : الزيادة فى البطر . وقال مجاهد وغيره: تمرحون أى تبطرون وتأشرون. وقال الضحاك: الفرح السرور ، والمرح : العدوان. وقال مقاتل. المرح: البطر والخيلاء ﴿**ادخلوا أبواب جهنم** ﴾ حال كونهم ﴿**خالدين فيها** ﴾ أى مقدرين الخلود فيها ﴿ **فبئس مثوى المتكبرين** ﴾ عن قبول الحق جهنم .

ثم أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بالصبر ، فقال : ﴿ **فاصبر إن وعد الله حق** ﴾ أى وعده بالانتقام منهم كائن لا محالة ، إما فى الدنيا أو فى الآخرة ، ولهذا قال : ﴿ **فإما نرينك بعض الذى نعدهم** ﴾ من العذاب فى الدنيا بالقتل والأسر والقهر ، وما فى ﴿ **فإما** ﴾ زائدة على مذهب المبرد والزجاج ، والأصل : فإن نرك ، ولحقت بالفعل نون التأكيد وقوله : ﴿ **أو نتوفينك** ﴾ معطوف على ﴿ **نرينك** ﴾ أى أو نتوفينك قبل إنزال العذاب بهم ﴿ **فإلينا يرجعون** ﴾ يوم القيامة فنعذبهم : ﴿ **ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك** ﴾ أى أنبأناك بأخبارهم وما لقوه من قومهم ﴿**ومنهم من لم نقصص عليك**﴾ خبره ولا أوصلنا إليك علم ما كان بينه وبين قومه ﴿ **وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله** ﴾ لا من قبل نفسه ، والمراد بالآية المعجزة الدالة على نبوّته ﴿ **فإذا جاء أمر الله** ﴾ أى جاء الوقت المعين لعذابهم فى الدنيا أو فى الآخرة ﴿ **قضى بالحق** ﴾ فيما بينهم فينجى الله بقضائه الحق عباده المحقين ﴿ **وخسر هنالك** ﴾ أى فى ذلك الوقت ﴿ **المبطلون** ﴾ الذين يتبعون الباطل ويعملون به .

ثم امتنّ سبحانه على عباده بنوع من أنواع نعمه التى لا تحصى فقال : ﴿ **الله الذى جعل لكم الأنعام** ﴾ أى خلقها لأجلكم ، قال الزجاج : الأنعام ها هنا : الإبل . وقيل : الأزواج الثمانية ﴿ **لتركبوا منها** ﴾ من للتبعيض ، وكذلك فى قوله : ﴿ **ومنها تأكلون** ﴾ ويجوز أن تكون لابتداء الغاية فى الموضعين ومعناها : ابتداء الركوب وابتداء الأكل ، والأول أولى . والمعنى : لتركبوا بعضها وتأكلوا بعضها ﴿ **ولكم فيها منافع** ﴾ أخر غير الركوب والأكل من الوبر والصوف والشعر والزبد والسمن والجبن وغير ذلك ﴿ **ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم** ﴾ قال مجاهد ومقاتل وقتادة : تحمل أثقالكم من بلد إلى بلد ، وقد تقدم بيان هذا مستوفى فى سورة النحل ﴿ **وعليها وعلى الفلك تحملون** ﴾ أى على الإبل فى البرّ ، وعلى السفن فى البحر . وقيل : المراد بالحمل على الأنعام هنا : حمل الولدان والنساء بالهوادج ﴿ **ويريكم آياته** ﴾ أى دلالاته الدالة على كمال قدرته ووحدانيته ﴿ **فأى آيات الله تنكرون** ﴾ فإنها كلها من الظهور وعدم الخفاء بحيث لا ينكرها منكر ولا يجحدها جاحد ، وفيه تقريع لهم وتوبيخ عظيم ، ونصب أى بتنكرون ، وإنما قدم على العامل فيه لأن له صدر الكلام .

ثم أرشدهم سبحانه إلى الاعتبار والتفكر فى آيات الله فقال : ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم** ﴾ من الأمم التى عصت الله وكذبت رسلها ، فإن الآثار الموجودة فى ديارهم تدل على ما أنزل من العقوبة وما صاروا إليه من سوء العاقبة . ثم بين سبحانه أن تلك الأمم كانوا فوق هؤلاء فى الكثرة والقوة فقال : ﴿**كانوا أكثر منهم قوة** ﴾ أي أكثر منهم عددا وأقوى منهم أجسادا وأوسع منهم أموالا وأظهر منهم ﴿ **آثارًا فى الأرض** ﴾ بالعمائر والمصانع والحرث ﴿ **فما أغنى عنهم ما كانوا**

يكسبون ﴾ يجوز أن تكون « ما » الأولى استفهامية أى أى شيء أغنى عنهم أو نافية ، أى لم يغن عنهم ، و« ما » الثانية يجوز أن تكون موصولة وأن تكون مصدرية .

﴿ **فلما جاءتهم رسلهم بالبينات** ﴾ أى بالحجج الواضحات والمعجزات الظاهرات ﴿**فرحوا بما عندهم من العلم** ﴾ أى أظهروا الفرح بما عندهم مما يدعون أنه من العلم من الشبهة الداحضة والدعاوى الزائغة ، وسماه علما تهكما بهم ، أو على ما يعتقدونه . وقال مجاهد: قالوا: نحن أعلم منهم لن نعذب ولن نبعث. وقيل: المراد: من علم أحوال الدنيا لا الدين كما فى قوله : ﴿ يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا ﴾ [الروم : ٧] وقيل : الذين فرحوا بما عندهم من العلم هم الرسل ، وذلك أنه لما كذبهم قومهم أعلمهم اللّه بأنه مهلك الكافرين ومنجى المؤمنين ففرحوا بذلك ﴿ **وحاق بهم ما كانوا يستهزئون** ﴾ أى أحاط بهم جزاء استهزائهم . ﴿ **فلما رأوا بأسنا**﴾ أى عاينوا عذابنا النازل بهم ﴿ **قالوا آمنا باللّه وحده وكفرنا بما كنا به مشركين** ﴾ وهى الأصنام التى كانوا يعبدونها : ﴿ **فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا**﴾ أى عند معاينة عذابنا ؛ لأن ذلك الإيمان ليس بالإيمان النافع لصاحبه ، فإنما ينفع الإيمان الاختيارى لا الإيمان الاضطرارى ﴿**سنة اللّه التى قد خلت فى عباده**﴾ أى التى قد مضت فى عباده، والمعنى : أن اللّه سبحانه سن هذه السنة فى الأمم كلها أنه لا ينفعهم الإيمان إذا رأوا العذاب وقد مضى بين هذا فى سورة النساء وسورة التوبة. وانتصاب ﴿**سنة**﴾ على أنها مصدر مؤكد لفعل محذوف بمنزلة وعد اللّه وما أشبهه من المصادر المؤكدة. وقيل: هو منصوب على التحذير، أى احذروا لعذابه. قال الزجاج: الماضية، والأول أولى ﴿**وخسر هنالك الكافرون** ﴾ أى وقت رؤيتهم بأس اللّه ومعاينتهم لعذابه . قال الزجاج : الكافر خاسر فى كل وقت ، ولكنه يتبين لهم خسرانهم إذا رأوا العذاب .

وقد أخرج أحمد ، والترمذى وحسنه ، والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى البعث والنشور عن عبد اللّه بن عمرو قال : تلا رسول اللّه ﷺ : ﴿ **إذ الأغلال فى أعناقهم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **يسجرون** ﴾ فقال : لو أن رصاصة مثل هذه ، وأشار إلى جمجمة أرسلت من السماء إلى الأرض ، وهى مسيرة خمسمائة سنة لبلغت الأرض قبل الليل ، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفا الليل والنهار قبل أن تبلغ أصلها ، أو قال : قعرها (١) . وأخرج ابن أبى الدنيا فى صفة النار عن ابن عباس قال : يسحبون فى الحميم فينسلخ كل شيء عليهم من جلد ولحم وعرق حتى يصير فى عقبه ، حتى إن لحمه قدر طوله، وطوله ستون ذراعا، ثم يكسى جلدًا آخر ثم يسجر فى الحميم. وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، وابن مردويه عن على بن أبى طالب فى قوله : ﴿**ومنهم من لم نقصص عليك** ﴾ قال : بعث اللّه عبدا حبشيًا فهو ممن لم يقصص على محمد .

---

(١) أحمد ٢/ ١٩٧ والترمذى فى صفة جهنم (٢٥٨٨) وقال: « هذا حديث صحيح » وصححه الحاكم ٢/ ٤٣٩ ووافقه الذهبى .